الفضيلة

أو

بول وفرجيني

للكاتب الفرنسى الشهير
برناردين دى سان بيير

ملخصة بقلم المرحوم
مصطفى لطفى المنفلوطى

مكتبة القاهرة

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى

اهداء الرواية

يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ، لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ، ولأن حياء الفتاة جمالها الذى لا جمال لها سواه ، فأنا أهدى هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ؛ ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التى أحب أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلة على أساس الفضيلة كما وضعها : بول وفرجينى ؟

مصطفى لطفى المنفلوطى

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع

الأستاذ محمود خيرت المحامى

فى سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية بإقامة تمثال من البرنز صنعه « دافيد » المثال الشهير فى إحدى ميادين ثغر الهافر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامحه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو ممسك بإحدى يديه قرطاساً وبالأخرى قلماً وعند قدميه صبى وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة .

من هما ذانك الصبيان المتصافحان ؟ وما معنى تلك الشجرة التى ليست من نباتات هذه البلاد ؟ وما عسى أن يكون ذلك الرجل الذى كتب له الحظ أن يكون محلا لعناية « دافيد » واهتمام الجمهورية ؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياته محباً للحرية واستقلال الرأى ، وإن ناله بسببها الأذى ، منقباً عن الحكمة وهو يتفانى فى تمجيدها ، عاشقاً للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، وينسق قلمه القدير كل يوم للأدب إكليلا يانعاً من أزاهير الجمال ، وتسمو به نفسه الطاهرة الأبية إلى سماء الإنسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه ، فكان رجلا ذكياً عالى الهمة ، حكيماً كبير النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها ، كاتبا فذاً جم الشعور ، ملأت فراغ قلبه فيوض الرحمة بالبشر إلى حد يجعله فى صف القديسين .

وما كان هذا الرجل بحاجة إلى أثر يخلده — وفى رأسه وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيا بها على تعاقب السنين .

* * *

ولد برناردين دى سان بيير فى التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٣٧ بالهافر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دى سان بيير حتى أنه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب [شفالييه] وأخذ يحلى صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب .

ولقد كان فى صباه رقيق المشاعر ، عصبى المزاج ، كثير الجرى وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية واسعة من طائفة العاثرين البائسين يكون هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان فى هذا الخاطر مثل جان دارك ، إلا أن هذه كانت ترى أن يعود الناس إلى فطرتهم الأولى طاهرين من الأرجاس خالصين من الأدران ، فيعيشون عيشة صافية هنية فى ظل شريعة الكون التى سنها الخالق ، أما برناردين فكان يرى أن يضع لهم نظاماً جديداً يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها .

ولكنه كان لايزال طفلا قليل الحول والحيلة حتى أن أحد أعمامه — وكان قبطاناً لسفينة تجارية — أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلا بالهموم وكراهية العيش فسلمه أبوه لجزويت كاين .

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشرين عن رحلاتهم فى البلاد الموحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدى إلى سبيل السعادة فريقا من عباد الله الأشقياء الجاهلين .

على أن أباه عجل بنقله إلى مدرسة روون ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ، ولكنه كما ذكرنا كان عنيداً لايسمع غير صوت نفسه وإن خرج بعد ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلساً لتأديبه ثم أوقفه .

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطة لتلمس الرزق فيها ولكنها كانت مهددة بالإغارة من جانب الأتراك فعاد أدراجه ، وأخذ يعيش من بعض دروس فى الحساب يعطيها لمريديه .

وهكذا أحدق به الهم وعضه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدرا يسعه فى محنته ، ولاقلباً يحنو عليه فى كربته ، فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاء فى هذا العالم القاسى قائلا : « إن العزلة جبل عال ترينى قمته الناس صغارا » .

على أنه لم يعدم صدرا آخر يفيض عليه من حنوه الأبدى الخالد ، هو صدر الطبيعة ، فاستنام إليها وأحبها وفنى فى عشقها .

لقد حببها إليه أيضاً أنه رأى ذات يوم عودا هزيلا من « الفراولة » نبت على حافة نافذته فلما أخذ يتأمله قام فى نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ما حوله من حشرات صغيرة وذباب ؛ ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئاً فشيئاً إلى حد أعجزه من متابعتها وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها .

وإن نفساً مثل نفس برناردين لاتعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولايحقد عليه لأن « من أحب وطنه تغرب فى سبيله » كما قال فى ترجمة حياته .

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت فى رأسه فسافر إلى روسيا

لعله يجد عند ملكتها « كاترين » ما يساعده على إخراجها إلى نور الوجود على شواطىء بحر قزوين، ولكن سهمه طاش فارتحل إلى فنلندا ثم إلى بولونيا فألمانيا فصحارى أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التى كتب عنها روايته، ولكنه فى كل هذه الأدوار كان سوء الحظ حليفه فاضطر إلى العودة لوطنه ثانياً وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهباً إلى أن العيب لم يكن على النظم التى تشرع للناس ولكن على نفس القائمين بها .

وكان فى أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التى طالما أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه فى تفهمها مزاجه الشعرى وهو يعتقد أن خواطره ليست هى التى تتجه إلى الطبيعة ولكنها هى التى توجه إليها آلاف الأشكال المختلفة الرائعة. وهكذا كان يغرس على طول طريقه بذور خيالاته فيحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهية وهو يرى فى كل ذرة من ذراتها نفسا حية ناطقة حتى صهره البحث وأنضجته التجربة ولكن شقاء الحظ جرعه آخر ما فى كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول فى نفسه : أصبح الناس لا يعرفون قدر الإحسان فكيف رفعتهم الأقدار ؟ ولكن حسبى أن التجربة أصارتنى هرماً فأصبحت لا أطمع فى غير الراحة .

نعم إنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشباب الطامح إلى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفنى وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، أضف إلى ذلك ما آلت إليه حاله من الفاقة والبؤس ففكر فى وضع كتاب عن تلك الجزر التى زارها ، وما شاهد فيها ودون فى مذكراته .

ولكن كتابه الذى كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف إلا نجاحاً قليلا لأنه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره فيه من خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها .

إلا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ، ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لأنه أدرك أنهم كغيرهم قوم لا يعرفون معنى العدل والحق اللذين كانا دعامة خلقه حتى أنه قاطعهم وهجرهم لأن ألم شوكة واحدة — كما كان يقول — تنسى المرء لذة مائة وردة يشمها ولذلك عمد إلى ما دونه من أبحاثه فى الطبيعة فجمعها فى كتاب نشره على الناس على ما بها من التفكك وعدم الارتباط ، ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الأطلال الدوارس — كما كان يسميها — كانت وحدة معنوية حية خيراً مائة مرة من أية وحدة علمية لأنها تمثل جلال القدرة حاضرة دائما فى الذهن ماثلة للعين حتى إن نجاحه كان فوق ما أمله فعرف الناس قدره وأحبوه .

وهكذا أمكنه أن يزحزح عن نفسه شيئاً من أحمال شقائه فابتاع منزلا صغيراً اختاره فى طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنه بين أفراد عائلته الطبيعية ، وعلى مقربة من حديقة الحيوان كى لا يحرم من متابعة أبحاثه .

***

وقد كان من نتائج تلك التجاريب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أن سعادة الإنسان قائمة على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة ، وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فإن مكانها الأول فى نفس كل فرد ، ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التى حاول إنشاءها واقتصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية فى ظلال الوحدة تتذوق طعم النعيم فى حجر الطبيعة ، وعند بساط الفضيلة .

وهكذا ظهر سفره الخالد « بول وفرجينى » فهز أوتار المشاعر وملك أزمة القلوب ، وكان فجراً لليل الأدب وتاجا على رءوس الأقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذى غمرته الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير

عظيم فى جميع أنحاء فرنسا ، فأبكى كل عين وصعد كل زفرة ، ولم تبق أسرة ولد لها ولد إلا سمته « بول » أو ابنة إلا سمتها « فرجينى » .

وكان أكبر ما أثر فى نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب ، فقد قال مؤلفها فى مقدمتها « إنى لم أتخيل قصة روائية أصور فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوروبية فى وسط ذلك القفر ، بل يمكننى أن أقول إن أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة فى تلك الأصقاع وتمتعوا بالسعادة التى وصفتها ، وإن تاريخهم فى مجمله صحيح شهد به كثير من سكان تلك الجزيرة ، ولم أضف عليه إلا بعض جزئيات ليست بذات بال .

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته فى النفوس قبل ظهورها فقال : « أردت عندما وضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار تأثيرها فى القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم وميولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين فبكوا ، فعلمت أنى كتبتها للناس جميعاً وأرضانى هذا الحكم الصامت كل الرضا » على أن هذا السفر إذا كان قد هز عالم البيان إلى هذا الحد فإنه لم يكن ابن يومه ، وإنما كان ثمرة مجهود بطىء طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر إلى فضاء الحقيقة وعليه ثوب الشباب القشيب ، فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التى تضع بذورها فى السكون وتنضجها فى الظل ، فإذا وافى اليوم الذى تظهر ثمرتها فيه أخذت بالالباب والأبصار .

وكثيراً ما كان يسأله الناس : كيف وضعه ، وكيف انتهى منه ، فيقول لهم: حسبكم أنه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الأسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذى شعرت به ، وإلا كان مثلكم كمثل الطفل يقع نظره على وردة عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى توجهت إلى عناية لويس السادس عشر فقلده

فيذهب خاطره إلى محاولة اهتدائه لكيفية صنعها ، وعند ذلك ينثرها ورقة ورقة حتى إذا بلغ غايته لايرى أمامه شيئاً .

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين فى حل من موقفهم هذا فهم معذورون إذا تساءلوا عن زهرة هذا السفر القيم كيف نشأت ، وعلى أى طريقة نبتت ، وبماء أى خاطر متقد سقيت ، وتحت أى مؤثرة من مؤثرات النفس أينعت ففاضت على الأجيال بالأريج والألوان والجمال .

ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفينة فى نفس حياة الكاتب إذا صح أن كل مؤلف يتمثل فى سطوره .

على أن برناردين إذا كان لم يخلق كاتباً فإن المشاهدة والتجربة والدرس هذبت قلمه وأنضجته ، حتى إذا انقضت حياته هزيلة بائسة طائرة فى مهاب الحوادث ، وقد أحاطتها الأيام بإطار من الشيخوخة لم ير بديلا منها إلا نفثات قلمه بين سطور السفر الفياض ، ولذلك قال عنه بعض قارئيه : « ليست هذه الرواية أثراً للكاتب ، وإنما هى أثر خالد للغة الفرنسية » .

على أن الرواية ، وإن كانت لم تقم إلا على وصف الطبيعة الجافة الخشنة ، فإن القارىء لا يكاد ينتهى منها حتى يشعر بدبيب النشوة فى مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها ، ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعبارته الساحرة الجذابة فهى التى أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالا حياً قدسياً خالداً حتى إن بعض قرائه صاح ، وقد هزه الطرب « إننى لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ، ولكنى أرى حولها وجوهاً ضاحكة مستبشرة وقلوباً تسيل سعادة وهناء » ، وحتى قال شاتوبريان «إن السحر الذى يتشعع من سطور هذا الكتاب ليس غير عظة تتلألأ فى ثناياها تحكى تألق القمر فوق عزلة مزدانة بالزهور » .

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ما حاربته الليالى وخاصمه الحظ أن

إدارة حديقة النباتات ومتحف التاريخ الطبيعى . وإذا كانت الثورة قد أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التى أصبح فيها ، فإن نابليون بونابرت شمله برعايته وغمره بإحسانه فأنساه مرارة الأيام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد فى حاجة إلى الأوسمة الخيالية التى كان يحلم بها فى صباه ، وكان إذا قابله قال له : « متى تؤلف لنا يا برناردين رواية ثانية ؟ » .

هذه هى رواية بول وفرجينى ، وهذا هو كاتبها الذى كان يقول فى أول أمره « إن إنكار الناس لجميلى والأحزان التى لاتفارقنى وضآلة مرتزقى ، وآمالى الضائعة ، كل هذه المصائب تجمعت لتحاربنى فأفسدت على صحتى وأزاغت صوابى حتى إن كل مايقع تحت بصرى أصبحت أراه متحركا مضاعفا كأنى « أوديب الملك » أرى شمسين » فأصبح يقول : « هكذا بعد ماقاست سفينة حياتى من زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنة إلى بر السعادة » ؟

محمود خيرت

(١)

جزيرة موريس

هى إحدى الجزر الإفريقية الواقعة فى المحيط الهندى على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر « سيشيل » وهى جزيرة قفراء بلقع ليس بها إلا قليلا من السكان السود متفرقين فى جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم فى حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها ، كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين فى جميع الأصقاع التى يعيشون فيها .

* * *

يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقى الجبل القائم خلف عاصمتها « بورلويس » وادياً مستطيلا مسوراً بسور من الآكام والصخور قد تراءت فى وسطه أطلال كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما ، ويرى الأرض المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء ، مختلفة السطوح ما بين أنجاد وأغوار ، وأحافير وأخاديد ، ومنعرجات ومستدقات ، إلى كثير من الجداول والغدران القائمة والمتداعية ، كأنما كان يعيش فيها قبل اليوم قوم يتولون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم أجمعه .

ولم يكن لذلك الوادى على اتساعه وانفراجه إلا فجوة[١] واحدة من ناحيته الشمالية ، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه جبل الاستكشاف ، لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة ، وبسفحه تقع مدينة « بورلويس » قصبة الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسى ، وهى مدينة صغيرة نصف متحضرة يتفرع عن يمينها طريق لاحب[٢] عريض ينتهى بضاحية « بمبلوس » وهناك الكنيسة المسماة بهذا الاسم قائمة بمماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزران وسط أفيح فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يرى هنا خليج « تومبو » أى خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى « كاب مالبرو » أى الرأس البائس . ثم الخضم الفسيح بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن السابحة على سطح الماء . وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير » يتهادى بينها كأنها البرج العظيم . .

ولا يزال يسمع المقبل على ذلك الوادى حين يدنو منه عصف الرياح الضاربة فى بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجار ودمدمة الأمواج المتوثبة على صخور الشاطىء وهضابه حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شىء فلا يحس إلا صدى ضعيفاً لحفيف سعف النحل ولا يسمع إلا وسوسة الأمطار المتساقطة برفق ولين على رءوس الصخور الملساء فترسم على جوانبها المكسوة بالطحلب ألوان الطيف[٣] ثم تنحدر عنها متسلسلة إلى حيث تسقى أحواض الأزهار المهملة التى لا تمتد إليها يد ، ولا يقتطفها المقتطف ثم تفضى بعد ذلك إلى الغدران والأفنية فتمدها بالجم الكثير من أمواهها وإلى خمائل الأشجار ولفائف الأعشـــاب ، فتتسرب فى أحشائها تسرب الأفاعى الرقطاء

---

(١) الفجوة : الفتحة . (٢) اللاحب : الواضح .
(٣) الطيف : هى الألوان المنحلة عن أشعة الشمس .

فى بطون الرمال ولا يرى بين يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت فى سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة التى تعابث أشعة الشمس أوراقها الخضراء المترعرعة وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ذهبها وفضها ونارها . ولا تنحدر إلى قاع الوادى وتنبسط فى أرجائه إلا وقت الظهيرة ، فإذا أدبر النهار وطفلت(١) الشمس للإياب كان منظر الأصيل أبدع منظر رآه الرائى فى جمال ألوانه ، وانسجام ظلاله ، ورقة أضوائه وتلهب أفقه وذهاب العين بين أرضه وسمائه فى أبهى من الحلة السبراء(٢) والروضة الغناء ، فإذا انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شىء من ماء وهواء ،وكوكب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة مخيفة كوحشة القبور ، لا نأمة فيها ولا حركة ، ولا بارق ، ولا خافق .

(٢)

الشيخ

كان يلذ لى كثيراً أن أختلف إلى هذا المكان الجميل صباح مساء ، وأن أستريح إلى منظره الهادىء الساكن ، فإنى لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية أقلب الطرف بين أرضه وسمائه ، وأفكر فى شأن هذين الكوخين الدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات والعبر وآثارهما من الأحاديث والسير إذ مر بى شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء(٣) فى يده ويلبس سراويل واسعة وصداراً ريفياً بسيطاً ،وقبعة

---

(١) طفلت الشمس : أى دخلت فى الطفل — أى الأصيل .
(٢) السبراء : المخططة .
(٣) عصا عجراء : ذات عجر ، أى عقد فى وسطها .

عريضة من الخوص كشأن سكان تلك الأصقاع ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلألأ وجهه الأبيض النحيف الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذى يتلألأ دائماً فى وجوه الريفيين الأتقياء ، نور البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنست به وبمنظره الجميل الأنيق ، وبدأته بالتحية فرفع رأسه إلى متوسماً وألقى على نظرة هادئة مطمئنة ، ثم رد تحيتى رداً جميلا وكأنما شعر لى بمثل الذى شعرت له به من العطف والود فأقبل نحوى باسماً متهللا . وجلس على صخرة محاذية للصخرة التى أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه ووضع قبعته بجانبه ، فأقبلت عليه وقلت له : لعلك تعيش فى هذه الجزيرة يا سيدى منذ زمن طويل ؟ قال : نعم طويت فيها رداء شبابى وهاأنذا أطوى فيها رداء شيخوختى ، وستبرد عظامى غداً تحت صخورها وجنادلها . قلت : هل لك أن تحدثنى قليلا عن شأن هذين الكوخين الدارسين ، وعمن كان يسكنهما قبل أن تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ؟ فوجم قليلا وظل صامتاً لا يقول شيئاً . وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألىء غمامة رقيقة من الحزن والاكتئاب . ثم تنهد تنهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤه وقال :

نعم يابنى إن هذا الوادى الذى تراه اليوم خراباً يبابا لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر ، كان منذ عشرين عاما روضة غناء يعيش فيها أقوام سعداء بأخلاقهم وفضائلهم، ما كان يخطر ببالهم ، ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذى تراه اليوم ، وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستذرف الدموع ؛ إلا أن أبطالها ليسوا ملوكا ، ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح والملاعب والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التى تقرءونها ، بل قوم فقراء مغمورين تقتحمهم العيون وتتخطاهم الأنظار ، ومن

كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ، ولا يعنى بسماع شىء من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذى ألفوه واعتادوه ، فهم لا يصدقون أن قوما فقراء متقشفين يعيشون فى أرض قفرة جرداء ، منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريقة الفضيلة والبساطة .

فأكبرت الرجل فى نفسى وأعظمته وعلمت أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة هذه الأسمال الحقيرة التى يلبسها . وقلت له : نعم يا سيدى إنى أعترف لك أننا معشر الأوروبيين لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك الذى تقوله ، ولا نعجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ؛ ولكننا لا نستطيع أن نصغى فى بعض الأحايين بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين ؛ ومهما بلغت القسوة بالقلب الإنسانى وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن يهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود إلى نفسه قليلا . وأن يفهم أن فى العالم صنوفا من السعادة التى يعرفها ويألفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها .

فقص على قصتك يا سيدى ، فما أنا لو علمت إلا رجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها من المدن والحواضر بين الدور والقصور ، فلعله يجدها فى القفر الموحش بين الهضاب والصخور .

فوضع يده على جبينه المغضن كأنما هو يفتش فى طياته عن بعض الذكريات القديمة أو يستجمع ما تفرق من شواردها .

وأنشأ يحدثنى ويقول :

(٣)

مدام دى لاتور

فى عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتى من « نورماندى » اسمه « مسيو دى لاتور » ليطلب رزقه فى هذه الجزيرة المقفرة بعد ما أعياه طلبه فى فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معيناً حتى من أهله وذوى رحمه . وكانت تصحبه زوجته وهى فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبوها عليه لأنه كان فقيراً مقلا ، ولأنهم كانوا من المدلين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم فى الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن مما يهون عليهم أن يصهروا[1] إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فتزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها إلى هذه الجزيرة علّه يجد سبيلا إلى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر إلى جزيرة « مدغشقر » ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضى المهجورة فيقتات منها هو وزوجته . فلم يتح له الحظ الذى أراد ، لأنه سافر إلى « مدغشقر » فى الفصل الذى يوبأ[2] فيه مناخها ويمتلىء فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة فلم يلبث أن اشتكى شكاة ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئاً من المال فتناهبته الأيدى هناك كما هو الشأن دائماً فى تراث الغرباء من الأوروبيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم

---

(١) أصهر إليه : صاهره .
(٢) وبئت الأرض توبأ كثر الوباء فيها.

فى تلك الجزر النائية . فأصبحت امرأته أرملة مسكينة لاسند ولا عضد ، ولا من يعينها على أمرها إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند حضورها ببعض دريهمات ، ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين فى هذه الجزيرة من عون الحاكم ومساعدته ، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ لأنها كانت أجل فى نفسها من ذلك ، ولأنها لم يكن يعنيها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذى كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائناً من كان .

فأكسبها يأسها هذا قوة وجلداً وصحت عزيمتها على أن تعتمد فى حياتها على نفسها ، وأن تتخذ لها قطعة من الأرض تستصلحها بيدها هى وجاريتها علها تجد فيها قوتها ومرتزقها .

والأرض فى هذه الجزيرة على جدبها وإقفارها لايعدم أن يجد فيها الإنسان بضع قطع خصبة صالحة للماء والاستثمار ، ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم ؛ فتركت المواضع الخصبة الميثاء وأوغلت فى المجاهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معتزلة فى سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطع لايطرقها طارق ولايمر بها سابل[1] حتى وصلت إلى هذا المكان الذى نحن فيه ، فأعجبها منظره الهادىء المنفرد ، وسكنت نفسها إليه سكون الطائر الغريب إلى العش المهجور ، وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائماً بحاجتهم إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته إلا المعتزلات النائية القصية ، والمواطن الخشنة الوعرة كأنما يخيل إليهم أن صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه ، أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسرى إلى قلوبهم وأفئدتهم فيروح عنها بعض مابها ويملؤها راحة وسكوناً .

---

(١) السابل : المار فى الطريق المطروقة ، جمعه سوابل وسوابلون .

إلا أن العناية الإلهية – التى تتولى حراسة الإنسان وتمده بلطفها وعنايتها من حيث لا يقدر ولا يحتسب وترى له دائماً خيراً مما يرى لنفسه – أبت أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها، فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها، وتعينها على أمرها.

(٤)

مرغريت

كانت تعيش فى هذه الأرض قبل عام واحد من حضور «مدام دى لاتور» امرأة صالحة كريمة رقيقة الحال اسمها «مرغريت» وفدت إليها على أثر نكبة حلت بها فى مسقط رأسها «بريتانيا» وخلاصتها أن نبيلا من النبلاء الاصطلاحيين، أى الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب. نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل ما يقال عنها، فصدقت ماحدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد. كأنما خيل إليها أن العظماء عظماء فى أحاديثهم وعهودهم، كما هم عظماء فى مظاهرهم وأزيائهم لا يخلفون إذا وعدوا، ولا ينكثون إذا عاهدوا. فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه.

وما هى إلا أيام قلائل حتى ملها واجتواها[1] كامل الكثيرات من قبلها، فرحل عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملا فيه وترك لها تحت وسادتها شيئاً من المال خيل إليه أنه الثمن الذى يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها

(١) اجتوى الشىء: كرهه

وشرفها ؛ فجن جنونها وهرعت إلى فرضة البحر التى علمت أنه سيسافر منها فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الدأماء إلا مايرى الرائى من أعقاب النجم المغرب[١] فبكت إلى ماشاء الله أن تفعل ، ثم عادت إلى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث إلا قليلا حتى شعرت أنها تجمع جنيناً فى أحشائها فأسقط فى يدها[٢] وعلمت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعدما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التى هى كل ماتملك العذراء فى يدها ، وكل ماتستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها ، فأزمعت الرحيل إلى إحدى المستعمرات النائية لتوارى فى قاعها السحيق سوأتها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد عنا كثير وعقبات عظمى واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحمين أن تبتاع لها خادماً زنجياً يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الأرض التى أوت إليها واستخراج ثمراتها .

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات لاتعرف أحداً من الناس ، ولا يعرفها أحد سواى ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولدها وتنسج نسيجها ، فلما وفدت هيلين « مدام دى لا تور » رأتها جالسة فى مكانها الذى اعتادت الجلوس فيه ؛ فعجبت لأمرها وأنست برآها أنساً عظيما ؛ لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن فى الناس إنساناً له حال تشبه حالها ؛ فدنت منها وحيتها ، ثم جلست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع التى زلت فيه قد قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمنى ، ولم يقس على فيما فعل ، بل عاقبنى على جريمتى

---

(١) المغرب : المنحدر إلى مغربه .
(٢) أسقط فى يده — على صيغة المبنى للمجهول — تحير وندم .

التى اقترفتها عقاباً عادلا شريفاً ، فله العتبى[1] معطياً وسالباً ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه .

فرثت لها هيلين « مدام دى لاتور » وأوت[2] إليها وأعجبها منها إخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بداً من أن تمنحها من بنات قلبها[3] مثل ما منحتها ، فأفضت إليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه فقالت لها مرغريت : أما أنا ياسيدتى فقد لاقيت عقوبتى التى أستحقها بما أسرفت على نفسى ، وفرطت فى أمرى . فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لاذنب لك ، ولا جريرة ؟

ثم دعتها إلى كوخها الحقير فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة ، وهى تقول : أحمدك اللهم فقد وجدت لى فى هذا المغترب النائى أختاً لم أجد مثلها بين أهلى وقومى ، وأحسب إلا أن آلامى قد انتهت .

كنت أسكن فى ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولـكنى كنت على بعد ما بينى وبينها واعتراض هذه العقبات دوننا ، متصلا بها أزورها ، وأتفقد حالها . وأرعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، فتلك خلة لا توجد إلا فى سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشامخة ، ولا الصحارى الشاسعة ، ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحـدة ، أو منزلا واحـدا ؛ أما فى أوربا فـكثيرا ما يعيش الرجـل بجانب الرجل لاينفصل بينه وبينه إلا جدار قائم أو ممر ضيق ، أو ظلة دانية ، ثم هو لايعرفه ، ولا يحييه ، وربما أنـكر وجهه وصورته ، وهناك قلما

---

(١) له العتبى : أى له الرضى .
(٢) أوى له : رق له وأشفق عليه .
(٣) بنات القلوب : همومها وأسرارها .

يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه فى أخصب البلاد وأغناها وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالا ؛ وهنا يجد ساعة نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم فى كل دار وكوخ ، سواء فى ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم وسوقتهم وأشرافهم ؛ كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى حياة البساطة والسذاجة ، والعيش فى الأجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التى فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، وود وإخاء .

وبعد : فلما سمعت أن جارتى قد نزلت بها ضيفة غريبة أتيت أليها أتفقد حالها وأعينها على أمرها ، فإذا أنا بين يدى فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألىء هالة وضاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى فى عينها المتضعضعتين الذابلتين الأثر الذى يراه الإنسان دائماً فى عيون الفتيات المنكسرات : الذل والانكسار فى ميدان الحياة .

وما هو إلا أن جلست إليها جلسة خفيفة حتى ألممت بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل حياتهما فى هذه الجزيرة وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادى مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماها الزنجيان ؛ فأعجبهما مقترحى وعهدا إلى بتنفيذ ما أشرت به .

وكانت مساحة الوادى نحو عشرين فداناً ، فقسمته قسمين : قسما أعلى ، وقسما أدنى . أما الأول فيبتدىء من رءوس تلك الصخور العالية التى تكسوها السحب أرديتها الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر « اللاتينية » وينتهى عند هذه الفجوة التى تراها أمامك ، ويسمونها هنا « لامبرازير »لأنها تشبه فى شكلها فوهة المدفع ، وتكثر فى هذا القسم الصخور والوعور التى

يتعـــذر السير فيها ؛ إلا أنه كثير الأشجار والنخيل ، حافل بالينابيع والغدران .

وأما الثانى فيبتدىء من هذا المكان منحدرا مع النهر الجارى بجانبه إلى نهاية الوادى حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائرا فى رملة ميثاء بين جبلين شامخين إلى مصبه فى البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والأعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها فى فصل الأمطار وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما فى الحقيقة قسمان متعادلان تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما .

فلما فرغت من تهيئتهما اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الأعلى نصيب هيلين « مدام دى لاتور » والقسم الأدنى نصيب مرغريت فرضيت كل منهما بنصيبها إلا أنهما أبتا أن تفترقا فى مسكنها وعيشهما فرأيت أن أنشىء لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان فى الكوخ الواحد ، وأن أجعل أحدهما فى ذيل القسم الأول ، وثانيهما فى رأس القسم الثانى ، فتسكن كل منهما فى أرضها ، وكأنها تعيش مع صاحبتها فى مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطا بها ، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الأخشاب من الغابات ؛ وصنع مواد مواد البناء وأنشأت لهما كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان المتشابكة ، وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينية تظللهما وتقيهما وهج الشمس وغائلة المطر .

وهنا صمت الشيخ وأطرق ، ثم رفع رأسه بعد قليل فإذا دمعة رقراقة تترجح فى مقلتيه كلما حاولت أن تسيل أمسكها واستمر فى حديثه يقول :

نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب والكوى والنوافذ وها أنذا أراهما الآن بين يدى ساقطين متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ولا نوافذ

ولا كوى ، ولا قطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى فى نفسى ، فلا تبرح مخيلتى حتى تذهب معى إلى قبرى فأبقى على هذه البقايا المائلة من جدرانهما وأحجارهما ليستثير مرآها شجنى ويهيج آلامى وأحزانى ، أو كأن طوارق الحدثان التى لا تبالى أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الأبد ، وقفت وقفة الإجلال والإعظام أمام هذه الأكواخ الحقيرة المشعثة فأبت أن تقضى عليها القضاء كله إجلالا لها واحتراماً لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين .

وبعد ، فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كأنها النجم اللامع فى سطوعه وإشراقه ، وسألتنى أن أكون (عرابها) وأن أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها : فأشرت على مرغريت أن تفعل ، لأنى أردت أن تكون لها أما ثانية فسمتها « فرجينى » وقالت لأمها : سيهب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فإنى ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذى انحرفت فيه عن طريق الفضيلة .

(٥)

الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هى وصديقتها مرغريت تعملان فى أرضهما بمعونة الزنجى (دومينج) وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره إلا أنه كان فتى الهمة والعزيمة واسع الخبرة فى شئون الزراعة الجليلة وأساليبها ، فكان يغرس فى كل أرض ما يناسبها من البذور والأغراس، لا يفرق بين القسمين ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر ؛ فزرع

الذرة فى التربة المتوسطة ، والحنطة فى الأرض الجيدة والأرز فى التربة السبخة، والقرع والقثاء وما أشبههما من النبات المتسلق حول الصخور وفوق رءوس الهضاب ، وزرع البطاطا فى التربة الجافة اليابسة ، وشجيرات القطن فى الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول السكوخين أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروح بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه .

وكان يذهب — فوق ذلك — إلى الغابات البعيدة والأحراش النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب أعشاب الوقود ، ويقضى جزءاً عظيماً من يومه فى تمهيد الأرض وتذليلها وتكسير الصخور ورصف الحصى وإنشاء الممرات والمستدقات والجداول والأقنية وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً لا أعينه عليه إلا بالرأى والإرشاد لأنه كان يحب سيدتيه حباً جما ، ويخلص لهما إخلاصا عظيما ، وربما كان للغرام يد خفية فى ذلك النشاط الغريب المنبعث فى أنحاء نفسه كما هو الشأن فى أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فإنه كان مغتبطا كل الاغتباط بتلك الصلة التى نشأت بينه وبين الزنجية « مارى » فى العمل ، وبوده لو استحالت إلى صلة أخرى غيرها أدنى إلى نفسه ، وألصق بفؤاده ، وقد تم له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ؛ فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنى بها ليلة عيد ميلاد فرجينى وسعد بجوارها سعادة لا تختلف فى روحها وجوهرها عن السعادة التى يهنأ بها البيض المتمدينون .

وكانت مارى فتاة نشطة حاذقة ذكية الذهن صناع اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت فى مسقط رأسها « مدغشقر » العلم ببعض الصنائع اليدوية التى يزاولها الناس هناك ؛ فكانت تجيد صنع السلال من لحاء

أشجار القصب ونسج المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته وترتيب أثاثه وتربية الطيور الداجنة ، ورعى الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ؛ فإذا فرغت من عملها حملت مافضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب — ولم يكن بالشىء الكثير — إلى سوق المدينة ، فباعته فيها ، ثم عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتها .

أى أن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دجاجات للبيض ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

وكان لا بد للسيدتين من أن تعملا عملا يعينهما على عيشهما ويروح عنهما سآمة الوحدة وملها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر ، فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكن مقتراً مكدوداً ؛ فأكلتا الدخن والذرة ؛ وشربتا الماء الرنق ، ولبستا القمص البنغالية الخشنة التى يلبسها الإماء فى هذه الجزيرة . ومشتا على الأرض حافيتين غير متنعلتين إلا فى اليوم الذى كانتا تذهبان فيه إلى الكنيسة فى حى « بمبلموس » لأداء الصلاة ، وقلما كانتا تذهبان إلى « بورلويس » عاصمة الجزيرة إلا فى الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسهما وفراراً من أعين الساخرين والهازئين فإن فعلتا نالهما من الألم والامتعاض ما ينغص عليهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا إلى مزرعتهما فإذا أشرفتا عليها ورأتا على بعد منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما ، نسيتا فى هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم ، وكبريائهم ، وكأنما قد نبتتا فى هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها .

ولقد عشت فى كل جو وبيئة وخالطت جميع الطبقات والأجناس وعاشرت

الناس أخياراً وأشراراً ، وأعلياء ، وأدنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين والصداقة بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظراً أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى في العين ، ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل إلى أحيانا أن نفسيهما قد استحالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان ، وكنت إذا حدثت إحداهما شعرت كأنى أحدث الأخرى معها ، وإذا حدثتهما معا كنت كأنى أحدث نفساً واحدة ذات صورة واحدة ولون واحد فلقد وحدت بينهما الهموم والآلام ، ومازجت بين نفسيهما الوحدة والعزلة والفكرة والرأى ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقت كل منهما بما نطقت به الأخرى ، وشعرت بما شعرت به ، وفكرت فيما فكرت فيه ، وكأن الله تعالى إذ زوى عنهما الأرض الفسيحة ذات الطول والعرض ، وحرمهما نعمة العيش الهنى ، أبدلهما منها تلك الروضة الغناء من الحب والإخلاص ، لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة، ولا ترجف بأرضهما رجفة .

فإن اضطرمت بين جوانحهما في بعض الأحايين نار أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيباً واستعارا لا تلبث أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما فتلوى بهما عن سبيلها وتطير بهما إلى العالم الثانى كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء إذ فقدت مادتها التى تتغذى بها على وجه الأرض .

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ويعدوان ويطفران ، ويناماں في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقا إلى صاحبه إذا فقد مكانه وغاب عنه وجهه ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل توأمان متشابهان .

وكثيراً ما كانت توضع إحداها ولد الأخرى فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة لمرغريت : « سيكون لكل منا ولدان ولكل من ولدينا أمان » .

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدى واحد بعد ما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنان أبويهما وعطفهما ، سبباً فى نموهما وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما إذا لقح أحدهما بالآخر أورقا وأثمرا بأبهى وأجمل مما لو بقى كل منهما فى مكانه .

وكان يلذ لأميهما كثيراً الحديث عنهما ، وعن مستقبل حياتهما ، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما قد بقيت فى زوايا قلبيهما بقية من ذلك الألم الماضى : ألم حرمانهما الهناء الزوجى الذى كانتا تتعللان به فى مؤتنف حياتهما فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به .

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهى أحياناً ببكائهما ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة فى الحياة فوق منزلتها ، ونزول الأخرى فيها إلى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذى تقاسيانه وتذوقان مرارته .

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يغيان فى مهدهما ، ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما وتشعران ببرد العزاء يتدفق فى صدريهما ، خصوصاً عندما تذكران أن الهناء الذى فاتهما فى ماضيهما لن يفوت ولديهما فى مستقبل أيامهما ، وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية وشرورها وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ؛ فلا ينالهما من أذاها شىء .

(٧)

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها أغرب من تلك الصلة التى كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذى بين روحيهما ، فإذا شكا بول شكت فرجينى لشكاته ، وإذا بكا لا يخفض عبرته ، ولا يسرى حزنه إلا رؤيتها باسمة بين يديه ، وكثيرا ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشئون فلا يدل على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه ، فكانت إذا ألم بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكاتمته نفسها : ضنا به أن تراه باكيا أو متألما .

وما جئت هنا مرة فى شأن من الشئون إلا رأيتهما معا يحبوان ، أو يدرجان أو يتداعبان ، أو يتماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شىء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ؛ فقد كان لهما مهد واحد ينامان فيه معا عاريين كعادة الأطفال فى هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتآخذا وتوسد كل منهما ذراع صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر .

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلتا الأخ والأخت ، وهى كلمة جميلة جدا ما خلق الله فى الكلم أجمل ، ولا أحلى . ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نغمة منها ، ويزيدها جمالا وحسنا صدورها من أفواه الأطفال الصغار كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غدا ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رءوسهم ، ويلوحون بها فى الآفاق .

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر ، وإلى معونته ومساعدته . فبدآ يشتركان فى خدمة المنزل ومناظرة شئونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من طلب العيش ومعالجة القوات كل فيما هيأته طبيعته له .

فلحقت فرجينى بالزنجية «مارى» تتعلم منها الطبخ والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة الملابس وصنع السلال . إلا أنها كانت تعنى بما يتعلق بأخيها بول قبل كل شىء ، ولحق بول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة التى كانت لا تفارق عاتقه على فلح الأرض وحرثها ، وتخطيطها وتقسيمها وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباها ، وتقليم أشجارها ، فإذا عثر فى طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر فى عشه ، أو حشرة فى حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها فى جيبه ليقدمها هدية لفرجينى حين يعود إليها .

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وجدت فرجينى فقد وجد بول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدرا إليها ، أو مشرفاً عليها ، أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بد .

وأذكر أنى كنت منحدراً ذات يوم من قمة الجبل ، وكان الجو ماطرا مكفهرا ، فرأيت فرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقى به المطر المتساقط ، فهرعت إليها لأساعدها على السير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الإزار الذى يضمها لايضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها بول ، فنظرا إلى ضاحكين متهللين كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك الفكرة الجميلة التى استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل إلى ظلة واحدة فذكرنى منظرهما هذا ومنظر رأسيهما الصغيرين

المتلاصقان فى ذلك الإزار بمنظر طفلى « ليدا » ، وقد حفرا معاً فى محارة واحدة .

وكانت حياتهما بسيطة ساذجة لأن ذهنهما كان بسيطاً ساذجاً خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران فى شأن غير شأنهما ولا يسبحان فى محيط غير محيطهما ، ولا ينتقلان بذهنهما من الحاضر إلى الماضى أو المستقبل ولا تترامى أبصارهما إلى وراء الأفق المحيط بهما ، كأنما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما .

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلهما وأميتهما وبعدهما عن هموم العلم ومشاغله ؛ فلم يقدر لهما أن يسهرا ليلهما منكبين على المذاكرة والمدارسة حتى يغلبهما النوم فيناما فى مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوماً من أيامهما أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثر غيظهما وحنقهما عجزهما عن التغلب على خصومهما فى ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشق مرارتهما غيظاً وحنقاً ، وما شعرا فى ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما أن يعرفا غير ما يعرفان ، لأنهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هانئين ، وها هى السعادة تظللهما بأجنحتها البيضاء ، وتتدفق بحراً زاخرا تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والإخلاص لذينك الشخصين الكريمين عليهما ، وها هما يقومان بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده ، بل عابد لمعبوده .

فما بهما من حاجة إلى من يعلمها أن الكذب حرام ، لأنهما لا يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لأن جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ، لأن ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محدود لا يحتمل جشعاً ولا نهماً ، ولا أن البر بالوالدين واجب ، لأنهما كانا يعبدان أميهما عبادة هى فوق البر والإحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ،

لأنهما وإن لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليلا . فقد كانا يصليان فى كل أرض وفى كل جو : فى البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفى بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالى وأواخرها .

* * *

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير فى صفحة الأفق مبشراً بيوم صحو جميل وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافية جريان الغدير المترقرق على بياض الحصباء سواء ليلها ونهارها ، وصبحها ومساؤها .

وكان من شأن فرجينى أن تستيقظ صباح كل يوم مبكرة والطير لم يفارق وكره فتحمل جرتها وتذهب إلى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة فتستقى منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الإفطار ، حتى إذا برزت الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هى وولدها فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ثم اصطفوا لأداء الصلاة وبسطوا أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلأهم بعين رعايته ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيء لهم من أمرهم رشدا ، فإذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النثار الفضى اللامع .

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعى البسيط تحت هذه السماء الصافية وفوق تلك الأرض الندية المخضلة عظيما فى نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما ، فلم تبلغ فرجينى الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها ، واعتدل قوامها وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفيها كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، وأضاءت عيناها الزرقاوان بنور سماوى غريب كأنه قبس

من النور الإلهى فإن ابتسمتا كانتا كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن قطبت سبحتا وحدهما فى جو السماء ، حتى تتلقى زرقتهما بزرقتها .

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلا من قامة فرجينى ، ونظره أحد من نظرها ، وأنفه أكثر شمما من أنفها ، ولونه أقرب إلى السمرة من لونها أى أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة فى تكوينها واستدارتها وكانت تنبعث من عينيه نار من القوة والنشاط تكاد تلتهب التهاباً لولا تلك الأهداب الندية الحافة بهما .

وكان لا يزال ثائراً مهتاجا ما يهدأ ولا يسكن حتى تقبل عليه فرجينى وتجلس بجانبه فإذا هو الطفل الصغير بساطة وسذاجة ووداعة ولطفاً .

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات طوالا على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية أو قمة مشرفة وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومد قدميه العاريين فكأنهما تمثال رخامى عتيق من تماثيل أولاد « بينلوب »(١) وكأن حياتهما حياة الملائكة الأبرار فى عالمها العلوى لا تشعر بحاجتها إلى الحروف والكلمات فى التعبير عن شعورها وإحساسها .

ولم يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة فى نطقها وإفصاحها ، ولم يكن حبهما حباً صناعياً ولا متكلفاً فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه وتأريث(٢) ناره فى قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الألفاظ وسحر البيان ، لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشىء ، لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ، ولا يغيب عن وجهه ، لا يزيد على ذلك

---

(١) بينلوب : زوجة عولس أحد أبطال اليونان فى عهدها القديم .
(٢) أرث النار : أوقدها .

ولا ينقص شيئاً ، ولقد استقر هذا الشعور فى نفسيهما وملك عليهما حواسهما وخوالجهما فلم يفكرا فى تشخيصه وتحديده واستعراض صوره وألوانه ؛ فكان أشبه شيء بالإيمان فى قلوب العجائز ، والإلهام فى أنفس الحيوان ، والعبقرية فى أذهان الخاملين المغمورين ، فهما ينعمان بحب هادىء لطيف لا جلبة فيه ولا ضوضاء ، ولا تجاذب ولا تآخذ ، ولا شكوى ولا عتاب ، ولا سهر ولا قلق ولا خوف من الطوارق ، ولا خشية من الفواجيء .

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألأ وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر فى أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول فى نفسها : ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عدت على عوادى الدهر ، وفرقت المنية بينى وبينها ، وخلفتها وحدها هنا فى هذه القفرة المجدبة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لا سند لها ولا معين ؟

وكانت لها فى فرنسا عمة ثرية ثراء واسعاً إلا أنها كانت امرأة متكبرة تياهة شديدة الذهاب بنفسها ، مدلة بجاهها ونفوذها مشردة فى آرائها وأفكارها فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذى اختارته زوجا لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التى حلت بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة عند ما عزمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها . وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها فى شأن من شئون حياتها ما تردد لها نفس على وجه الأرض ، أما الآن وقد أصبحت أماً يعنيها من أمر فتاتها ما يعنى الأمهات من أمر فتياتهن ، فلم تر بداً من أن تحمل نفسها على ذلك المكروه الذى عافته برهة من الزمان ، فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتابا طويلا أفضت إليها فيه بخواطر نفسها ، ووساوس قلبها ، وقصت عليها قصة حضورها إلى هذه الجزيرة ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التى تحياها الآن

من بعده وحيدة منقطعة لا ناصر لها ولا معين ، وظلت تحدثها حديثاً طويلا عن ابنتها وما تخشاه عليها فى مستقبل حياتها إن نشب بها ظفر جارح من أظفار الدهر وفرقت المنية بينها وبينها ، ثم قالت لها فى ختام كتابها :

« إن كنت ترين أنى لا أزال مذنبة بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخينة التى رويت بها ثرى الأرض اثنى عشر عاماً لا تكفى لمحو زلتى من صحيفة أعمالى ، فارحمى هذه الفتاة المسكينة من أجلها لا من أجلى فهى حفيدة أخيك وغصن دوحتك ، والبقية من أسرتك » .

لبثت تنتظر رداً على كتابها ، فلم يأتها ، فأتبعته بآخر ، ثم بآخر ، وضرعت فى ذلك ضراعة لم يكن مثلها ما يهون على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ أى بعدقدومها هنا باثنى عشر عاماً وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو « دى لابوردنيه » حاكما على الجزيرة إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتابا ورد عليها من عمتها ، فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وعلمت أن أيام شقائها قد انتهت ، وأن الله رحمها ، ورثى لبؤسها وشقائها ، وهرعت إلى « بورلويس » لمقابلته فدخلت عليه فى ذلك الثوب البنغالى الخشن الذى اعتادت أن تلبسه فى بيتها غير حافلة بشىء إلا تلك السعادة التى ستقدمها عما قليل لابنتها فاستقبلها الرجل استقبالا جافاً خشناً ، وهى المرأة الشريفة الطاهرة التى تغضى العيون بين يديها إجلالا وإكباراً ، والبائسة المسكينة التى تهابها النفوس مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقائها ولم يزد على أن أومأ إليها برأسه إيماءة خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور إلا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتقع لونها ، وارتعشت يدها ، وترنحت فى مكانها ترنح الشارب الثمل ، فقد كتبت إليها عمتها تؤنبها وتقرعها تقريعاً مؤلماً مهيناً ، وتشمت بها وبمصيرها ، وتقول لها : هذا جزاء تمردك

وعصيانك وخروجك عن أهلك وقومك وانقيادك إلى شهوتك البهيمية واسترسالك فيها استرسالا دفع بك إلى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذى لا يليق به أن يحل سيور حذائك ، حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذى لا يمحى ، ولقد أحسنت كل الإحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك إلى تلك الجزيرة النائية المنقطعة لتدفنى فيها نفسك وعارك إلى الأبد ، وما موت زوجك ، وولادة ابنتك وشقاء عيشك والوساوس التى تعتلج فى صدرك خوفاً على فتاتك ، وعلى مستقبلها ، إلا عقوبة أنزلها الله بك ليمحص عنك ذنوبك ويمهد لك سبيل غفران سيئاتك ، فاصبرى ، ولا تجزعى ، حتى يقضى الله قضاءه فيك .

ثم أنشأت تدل عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإبائها ، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبتلة ما تزلق بها شهوتها فى هوة من تلك الهوى التى تزلق فيها أقدام النساء الجاهلات ، ولا تسلم قيادها إلى رجل من الرجال كائناً من كان ضناً بحريتها أن تعبث بها أيدى المطامع والأهواء .

وكانت كاذبة فيما تقول فهى امرأة دميمة شوهاء غريبة الأخلاق والأطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ، وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكى ، وكان كبرياؤها الكاذب يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوى البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة ، وليس بين هؤلاء جميعاً من يرضى أن يبيعها نفسه بيعاً مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها .

ثم ختمت كتابها بقولها « لا بد لك أن تعملى لنفسك ، فقد علمت أنك فى جزيرة صالحة للعمل والاستثمار . وأن جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير ، على أننى قد كتبت إلى مسيو دى لابوردنيه

حاكم الجزيرة أوصيه بك خيرا فاعتمدى عليه ، وعلى معونته ، ولا تكتبى إلى بعد اليوم » .

وكانت صادقة فى كلمتها هذه ؛ فإنها كتبت إلى ذلك الرجل كتابا توصيه بها فيه ؛ إلا أنها ملأته بذمها وثلبها ، والاستطالة عليها فى عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذرا عنده فى قسوتها عليها ، وعنفها بها وضنها عليها بالمعونة والمساعدة .

فكان من أثر ذلك فى نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهم لها حين رآها ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها عن شأن من شئونها ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجرا ومللا ، فكأنما أوصته بقتلها والقضاء عليها .

(٨)

العـــزاء

عادت هيلين إلى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسى ، فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة وتهافتت على سريرها باكية منتحبة ، فهرعت إليها صديقتها تسألها ما شأنها فأشارت إلى الكتاب وقالت : ها هى ذى خلاصة حياتى من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن القراءة فأتتها بالكتاب فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق فى لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها : متى تخلى الله عنا يا هيلين فنلجأ إلى الناس فى شئوننا ، ونعتمد عليهم فى رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هيأ الله لنا من القوت فى هذه الجنة الصغيرة

التى نعيش فيها ، فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشى عارياً أو حافياً ، ولا من يبيت مغتماً أو محزوناً فروحى عن نفسك ؛ فالله أرحم بك وبنا من الأقارب والأصدقاء ، ثم عجزت عن امتلاك نفسها ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها وظلت تقول لها : آه ياصديقتى ! آه ياصديقتى .

وكانت فرجينى واقفة بجانبها فأثر فى نفسها هذا المنظر المحزن ؛ فاستعبرت باكية ، وظلت تتناول يد أمها مرة ويد مرغريت أخرى فتقبلهما وتبللهما بدموعها وتقول لهما أرجو أن لايكون ذلك من أجلى ؛ فبكى لبكائها الزنجيان وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ؛ أما بول فقد عصفت فى رأسه عاصفة الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه متهدداً متوعداً لايعلم من يهدد ، ولا من يتوعد ، ولا على أى رأس من الرءوس يرسل صاعقة غضبه ، لأنه لم يفهم مما كان شيئاً ، فكان هذا المأتم الغريب فى تلك الساعة الرهيبة مظهرا من مظاهر الإخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، واجتمعت القلوب على شىء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان ، فسرى عن هيلين قليلا ، وضمت بول وفرجينى إلى صدرها وقالت لهما : إنكما ، وإن كنتما يا ولدى سبب أحزانى وآلامى ، ولكن الشقاء لم يأتنى منكما ؛ فلم يفهما شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما بها هدأت وسكنت ، وأنها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها .

ومالبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ولعبهم ومرحهم .

وكانت تلك الحادثة أشبه شىء بسحابة اعترضت وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت .

(٩)
الاستعمار الأوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان فى جوهما نمو النبات المحيط بهما وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما ؛ فبينا فرجينى جالسة فى الكوخ ذات يوم تهيىء طعام الإفطار لأسرتها كعادتها والشمس لا تزال فى خدرها ، وأماها قد ذهبتا مع دومينج لأداء صلاة الأحد فى كنيسة « بمبلموس » وبول فى الحديقة يشذب بعض أشجارها ، ومارى وراء الكوخ تشتغل ببعض شئونها إذ دخلت عليها زنجية مسكينة آبقة[1] كأنها الهيكل العظمى نحولا وهزالا ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحقويها[2] فجثت على ركبتها بين يديها باكية منتحبة وأنشأت تقول لها : الرحمة ياسيدتى فإنى أكاد أموت جوعاً ، وقد مر بى يومان ، وأنا أجوب هذه الأحراش والغابات أتوارى مرة وأظهر أخرى ، وأقتات كل ماهو فوق التراب مخافة أن تقع عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدونى إلى سيدى ، والموت أهون على من أن أعود إليه ، فهو رجل قاس غليظ لايزال يجلدنى ويمزق لحمى بسوطه كلما بدا له أن يفعل ذلك ، ثم كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت إلى مواضع الضرب منه فإذا خطوط حمراء ملتهبة لايستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت : ولقد حدثت نفسى كثيراً بالانتحار فما كان يمنعنى منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثاً حسناً ، ويقولون إنكم ، وإن كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ،

(١) الآبقة : الهاربة من مولاها .
(٢) الحقو : الخصر .

فأضرع إليك ياسيدى أن ترحمينى وتعودى على بلقمة أتبلغ بها ، وأن تحولى بينى وبين الشقاء ، وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها فأوت[1] لها فرجينى ورقت لها رقة شديدة ونهضت إلى الطعام الذى كانت أعدته لأسرتها فأتتها به فالتهمته فى لحظات قليلة وأخذ وجهها يتطلق فرحاً وسروراً ، فقالت لها فرجينى : أتحبين أن أذهب معك إلى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك ويرحمك ، ويكون لك فى مستقبله خيراً منه فى ماضيه؟ وماأحسبه إلا فاعلا حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك المعذب المقروح ، فشكرت لها الجارية فضلها ورحمتها ، وقالت لها : سأتبعك ياسيدتى حيث شئت فأنت ينبوع الرحمة والإحسان .

فهتفت فرجينى ببول فحضر فحدثته حديث الجارية والرأى الذى رأته لها ، فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها فى رحلتها . ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما وتخترق بهما الغابات والأجمات فى ممرات مستدقة غامضة تعرفها وكانت تعترضهما فى مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى فى تسلقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود حيث مقام الرجل ، فانحدرا إليه ، وهناك شاهدا بنية عظيمة فخمة تحيط بها حدائق غناء وأدواح ملتفة ومزارع منبسطة ، وعبيد كثيرون منتشرون فى كل مكان يحرثون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ويحملون الأثقال ويقطعون الصخور ولمحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مشية الخيلاء و « غليونه » فى فمه ينفث منه الدخان وبيده عصا خيزران طويلة ، وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم ، غائر العينين مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحة الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منها ، فارتاعت فرجينى لمنظره المرعب المخيف إلا أنها لم تجد بداً من التقدم فمشت نحوه خائفة مضطربة تعتمد على يد بول

---

(١) أوى له وإليه — بالقصر — : رحمه ورق له .

والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغته فجثت بين يديه وأخذت تضرع إليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده الله والكتاب فى ذلك ، فلم يكترث فى مبدإ أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين زريين فى ملبسهما وهيأتهما إلا أنه لما وقع نظره على فرجينى ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبى المسترسل على ظهرها ، وتلك العصابة الزرقاء التى تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياة يترقرق فى وجهها ترقرق الطل فى ورقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت رشده ، وأخرج غليونه من فمه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، ثم تقدم نحوها قليلا وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة ، وقال لها : قد عفوت عنها أيتها الفتاة الجميلة لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت .

فأشارت فرجينى إلى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمته وفضله ، ثم انكفأت راجعة تركض ركض الهارب وبول يتبعها حتى ارتقيا الجبل الصغير الذى هبطا منه وجلسا تحت دوحة من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالا عظيما ، فقد قطعا فى ذلك اليوم خمسة فراسخ فى أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها ، ولا يهدآن ولا يتبلغان[1] بطعام ، ولا شراب ، فقال بول لفرجينى ها قد مال ميزان النهار وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكرة لا أحسب أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس فى هذه البطحاء المحيطة بنا شجرة واحدة ذات ثمر صالح نطعمه أو ننقع ظمأنا بعصارته ، وأنت ظامئة جائعة لا طاقة لك بالصبر على ذلك أكثر مما صبرت ، فخير لنا أن نعود إلى مزرعة مولى الجارية ونطلب إلى أن يمدنا بشىء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضانًّا علينا بهما .

فوجمت فرجينى وقالت : لا يابول . إن هذا الرجل قد ملأ قلبى خوفاً

---

(١) تبلغا بالشىء : اكتفيا به وقنعا .

ورعباً وماأحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التى كانت تقولها لنا أمى دائماً « إن خبز الأشرار يملأ الفم حصى » فلنمض فى سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو يتخلى عنا .

قال : وما العمل ؟ والشقة بعيدة ، والمنال وعر ، والأرض قاحلة جدباء لاماء فيها ولا ثمر ، ولا شىء مما يتبلغ به المتبلغ ، أو يتعلل به الظامىء ؟ .

قالت : إن الله الذى يسمع زقزقة العصفور الصغير فى عشه فيرسل إليه الحبة التى تشبعه ، سيسمع دعاءنا ، ويرد لهفتنا . وما ذلك عليه بعزيز .

ثم سارا فى طريقهما فما أبعدا إلا قليلا حتى سمعا خرير ماء على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « إن ههنا ماء وتبعا الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية ينفجر من صدوعها ماء » زلال رقراق كأنه ذوب البلور فى شفوفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ووجدا من حوله بعض الأعشاب التافهة فأصابا منها قليلا ثم جلسا فى مكانهما .

وإنهما لكذلك إذ لمحا على البعد نخلة سامقة من نخيل الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيق مستطيل لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الإنسان إلا قليلا ، وربما ذهب فى الهواء ستين قدما أو أكثر ، وله فى شعفاته[1] لفائف ضخمة متراكمة أشبه بلفائف الكرنب تحمل فى جوفها طلعة أبيض ناصعا ، حلو الطعم جيد الغذاء .

فابتهجا بها إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا بين أن يصعداها ، وهو ما سبيل إليه ، أو يقطعاها ، وهو ماتعيا به قوتهما ، لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفية متداخلة متينة النسيج ، سميكة القشرة ، تعيابها الفؤوس القاطعة فلم يبق أمامها إن أن يحرقاها فتهوى بين يديهما فيظفرا بثمرها ولم يكن لديهما

---

(١) شعفاته : أعاليه .

نار ، ولاشيء مما تقتدح به النار ، وليس فى تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها ، واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ففتقت الحاجة لبول حيلة من أغرب الحيل وأبدعها وقديما فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستثارت دفائن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم فى جميع شئونه وأحواله بمثل ماتفتقه الحاجات والضروريات ، ولانبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا فى تربة الفقر والإقلال ، فعمد إلى ظر[1] رقيق الأطراف مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المدى فى منفعتها وجداها ،فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقبا دقيقا بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن الأول فى ثقب الغصن الثانى بعد ماشد عليه بقدمه وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة فما هى إلا لحظات حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة ألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلا حتى هوت بين يديه هوى الكوكب النارى من سمائه ، فأخذ يفض اللفافات عن طلعها الأبيض النضير ، وجلس هو وفرجينى يشتويان ويأكلان ألذ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ومرت بهما ساعة سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم مالبثا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذا يتمثلان حيرتهما وضلالهما ، وبعد الشقة بينهما وبين أرضهما ، ويذكران قلق أميهما عليهما وجزعهما لغيابهما ، ويقولان فى نفسيهما : لابد أن تكون الظنون قدذهبت بهما مذاهب سيئة فى شأنهما حينما عادتا من الكنيسة إلى المزرعة فلم تجداهما ولم تعرفا الوجه الذى ذهبا فيه .

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرفا الطريق

---

(١) الظر : الحجر المحدد

التى أتيا منها فأضلاها فسقط فى أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان وكان بول أهدأ من فرجيني روعاً وأثبت جأشاً ، فظل يعللها ويهدىء روعها ويقول لها : إن كوخنا يكون دائماً فى مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فإذا نحن اتجهنا جهة الشرق لانحيد عنه يمنة ولا يسرة ، ثم إذا صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذى نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا فى مزرعتنا .

وأخذا يسيران فى الوجهة التى توهماها فمرا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة ، وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يطأ السائحون لها أرضاً حتى اليوم ، وظلا على ذلك ساعتين حتى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقاً ، فذعرت فرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة فى مجراه واستحال عليها أن تضع قدمها فيه فلم ينشب[1] بول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا بصخوره المتزلقة وظل يقول لها وهو سائر بها لاتخشى شيئاً ياأختاه فإننى جلد قوى لايعجزنى حمل شىء من الأشياء كيفما كان شأنه ، وأشعر أنى أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ؛ وأستطيع أن أقول لك إن نفسى كانت تحدثنى بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالى بعواقبها .

فاضطربت فرجيني وقالت له : ولكنك لا تفعل يابول إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً . دع الأشرار ياصديقى وشأنهم ، لا تهجم عليهم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت شرهم فى صدورهم حينما لا يجد له مضرباً ولا منتدحاً ، ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : آه يارب لم تجعل طريق الخير سهلا لنا كطريق الشر ؟

---

(١) لم يذهب ، لم يلبث .

ولم يزل سائراً بها حتى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن يستمر فى سبيله حاملا إياها على ظهره ويصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها .

واستمرا سائرين فى أرض وعرة كأداء(١) كاطراد السيف تحفى فيها النعال، وتدمى الأقدام ، وكانت فرجينى قد نسيت نعلها فى كوخها حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكنة ما أذهلها وطار بلبها ، فأضر بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليها فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته، فهدأ بعض ما بهما ؛ وأقبلت على بول تقول له : هاهى ذى الشمس قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً وقد نال منى التعب ولم يبق لى جلد على المسير ؛ فاتركنى وحدى هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبر أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إلى من قبلكم من يحملنى إليكم ، فأبى بول مستعظما الأمر ، وقال الموت أهون على من أن أتركك وحدك فى هذا المكان الموحش المقفر فسأبقى معك مابقيت فإن أظلنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلت الغداة ثم نسجت لك من أعوادها وأغصانها مهاداً لينا تنامين عليه وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح .

فأذعنت لرأيه وكانت قد شعرت بشىء من الراحة بعدما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، وبيسراها على كتف بول حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع أقطارها

(١) الأرض الكأداء : الشاقة الوعرة .

كثير من الأدواح الباسقة الملتفة فدخلاها . وما أمعنا فيها إلا قليلا حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضاب الشامخة ، و الأدواح العالية ، وغاب عن عينيهما الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما الذى يهتديان به ، فإذا هما في مضلة يهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب المشرفة والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة والأعماق المتغلغلة ، فذعر بول ذعراً شديدا ووقف فى مكانه حائرا ذاهلا لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائما مخبولا عله يجد طريقاً أو مسلكاً ، أو دليلا يهديه الطريق ، فلم يجد فتسلق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس أو يرى قرص الشمس فى منحدرها إلى مغربها ، فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألأ على أوراقها الخضراء أشعة الشمس الذهبية قبل انحدارها إلى الغروب ، وغير الظلال الممتدة التى يرسلها الليل طلائع لجيوشه الزاحفة المتدفقة ، وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها ساعة الغروب وساد السكون على كل شىء فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء السابحة فى أجواز الفضاء لا يدب فيها حيوان ، ولا يخطر إنسان ؛ فملك الخوف قلب بول وجن جنونه وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يدرى من يحدث ومن ينادى : الغوث ، الغوث ، النجدة ، النجدة ، إلى أيها الناس لتنقذوا فرجينى البائسة المسكينة . فلم يجبه غير الصدى المتردد .

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته حتى خيل إليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء فنزل من مكانه حائرا متضعضعاً ، ليس وراء ما به من الهم غاية . ثم وقف وأجال نظره فى الفضاء فلم ير ماء ولا ثمرا ولا نخيلا ولا شجرا ، ولا كناً ولا مأوى ولا شيئاً مما يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل فصرخ صرخة عظمى وتهافت على الأرض باكياً منتحباً ،

فذعرت فرجيني حين رأته على تلك الحال وهرعت إليه وضمته إلى نفسها وظلت تقول له : لاتبك يابول فإن بكاءك يقتلني هماً وكمدا ، واغفر لي جريمتي التي أجرمتها إليك ، فلولاي لما قاسيت هذا البلاء الذي تقاسيه الآن ، ولقد كان خيرا لي ألا أقدم على عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمي ، ثم قالت له : دع البكاء وتوجه إلى الله تعالى بالضراعة والابتهال عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجاً .

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما ووجدانهما وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس القانتين المتبتلين في مواقف خشوعهم وابتهالهم وكانت الشمس قدانحدرت إلى مغربها ولم يبق منها في حاشية الأفق إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادىء من آثار السفينة الماخرة ، فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحاً شديدا فصاح بول : إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون الأيائل[1] في أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها ، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئاً فشيئاً ، فارتعدت فرجيني وقالت : يخيل إلي يابول أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » لابل هو بعينه وما ارتبت فيه قط .

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد لو استطاع أن يبكي فرحاً بهما ، ثم مالبثا أن رأيا الزنجي دومينج مقبلا عليهما ؛ فازداد سرورهما واغتباطهما وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكياً مستعبرا وظل يقول لهما : لقدمر بأميكما اليوم ياولدي يوم مامر بهما مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ولقد كان جزعهما عظيماً جدا حينما عادتا من الكنيسة فلم تجدا كما ، ولم تعرفا

---

(١) الأيائل : جمع أيل ــ بالتشديد ــ : حيوان كالوعل .

أى سبيل سلكتما ، ولا أرض اشتملت عليكما ، ولا تستطع مارى أن تقول لهما شيئاً لأنها كانت مشتغلة ببعض الشئون وراء الكوخ فى الساعة التى خرجتما فيها فلم تراكما ، وقد فتشنا عنكما كل غاد ورائح فلم نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب « فيديل » على تتبع آثاركم فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمها ، وكأنه علم ما يريد منه فألصق خيشومه بالأرض وانبعث فى الطريق التى سرتما فيها فعل الدليل الحاذق فتبعته أخترق الغابات والأجمات وأتسلق الصخور والهضاب ، وأجتاز الجداول والأنهار وأشعر بجميع ما شعرتما به من المتاعب والآلام حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوربى على شاطىء النهر الأسود ، وهنالك حدثنى بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع إليه فوعدكما بالعفو عنها ، ثم مالبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ماتم فى شأنها .

فاضطربت فرجينى وقالت : وماذا تم فى شأنها ؟ ألم يعف الرجل عنها ؟ فابتسم دومينج وقال : نعم عفا عن قتلها وإزهاق روحها ، أما مادون ذلك فلا ، فإنه ما لبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكى العيون وتذيب الأكباد وقد رأيتها بعينى فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة .

وما أتم كلمته حتى صعقت فرجينى وهتفت بكلمتها التى كانت ترددها دائماً : آه يارب لم لم تجعل طريق الخير سهلا ليناً كطريق الشر ! ؟

ثم عاد الزنجى إلى حديثه يقول :

ثم انكفأ « فيديل » راجعاً فتبعته فسار قليلا على شاطىء النهر الأسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت وراءه حتى قادنى إلى عين ماء جارية

رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لا يزال ينبعث دخانها وبقايا طلع مشوى منتاثر حولها ، فعلمت أنكما جئتما بهذا المكان وأن الجوع قد نال منكما منالا عظيما فتجشمتما فى طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادنى الكلب بعد ذلك إلى هنا كما تريان ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ ، وقد أرسلت لكما سيدتاى هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ، وأخرج لهما طعاماً كثيراً وأثماراً متنوعة ، وركوة ماء قراح ، وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على فرجينى أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للسير فإذا بول وفرجينى ضعيفان متضعضعان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين و الإعياء .

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب لايدرى ماذا يصنع أيحملهما على عاتقه وهو ما لاطاقة له به ، أم يقضى الليل بجانبهما ووراءهما أماهما تنتظرانهما انتظار الظامىء الهيمان علالة الماء البارد ؟ أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ؟ وكيف له بتركهما وحدهما فى هذه القفرة الموحشة التى لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوف وأهوال فتنفس تنفسة طويلة وأنشأ يقول : أسفى على تلك الأيام المواضى حين كنت أحملكما فيها يا ولدى على ذراع واحدة ما أشكو ولا أتبرم ، أما اليوم فقد وهن عظمى ، وضعف متنى وتقاربت خطاى ولم يبق لى فى الحياة إلا هذه الخطوات البطيئات التى أخطوها إلى قبرى .

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحاً سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل فراعه منظرهم ، ثم تبينها فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض فى شعاب الجبال ومخارمها وكانوا قد سمعوا وهم فى مكمنهم حديثه

مع الولدين ورأوا حيرته فى أمرها لجاءوا لمساعدته وقال له زعيمهم : إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً وأشرفهم نفساً ، وأدناهم رحمة فقد جشما اليوم نفسهما عناء عظيما فى سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحماها وأويا إليها وذهبا بها إلى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ، وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطىء النهر الأسود فشكرنا لهما فى أنفسنا فضلهما ونعمتهما وعجبنا كيف استطاع ذلك الإهاب الأبيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما فى حاجة إلى من يحملهما إلى مزرعتهما ، فجئنا لنتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التى أسدياها إلى تلك الطريدة المسكينة .

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا فى لحظات قليلة بضعة أعواد من الأشجار العاتية وصنعوا منها مايشبه المحفة فصعد إليها بول وفرجينى وحملها أربعة منهم على عواتقهم ومشى الباقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التى يعالجونها فى أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى المزرعة .

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس عند سفح الجبل وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوئها وجوه القادمين ، فلمحتا المحفة على بعد حتى طارتا إليها وضمتا ولديهما إلى صدرهما باكيتين ، منتحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم والتفتت هيلين إلى ابنتها فقالت لها العفو يا أماه فقد جاءتنى اليوم زنجية مسكينة آبقة من سيدها تتضور جوعاً ، وتسيل نفسها هماً وكمداً ، فسألتنى أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت فى أمرها بعد ذلك فلم أر خيرا لها من أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها

والرحمة بها وأبى بول إلا أن يصحبنى ، فذهبنا إلى شاطىء النهر الأسود ، فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا حائرين ساعات طوالا حتى وافانا دمينج ، وكان التعب قدنال منا منالا عظيما ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء الزنوج الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه المحفة وحملونا عليها رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذى بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزى الله المحسنين خير جزاء بما فعلوا .

فضمتها أمها إلى صدرها ، وقالت : قد عفوت عنكما يا ولدى ، ولا حرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين .

ثم عادوا جميعاً إلى أكواخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزنوج كثيرا من الطعام والشراب فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا .

(١٠)

السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يابنى إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لا غيث يهطل من السماء ، وأن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلت ، وأنى وجدت : فى القصر وفى الكوخ ، فى المدينة وفى القرية ، فى الأنس وفى الوحشة ، فى المجتمع وفى العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور ؛ فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنسب ، والفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه

التى بين جنبيه فهى ينبوع سعادته وهنائه إن شاء الله ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد ، وما هذه الابتسامات التى نراها تتلألأ فى أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين لأنهم سعداء فى عيشهم ، بل لأنهم سعداء فى أنفسهم ؟ وما هذه الزفرات التى نسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والأثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم أشقياء فى عيشهم بل لأنهم أشقياء فى أنفسهم ، وما كدر صفاء هذه النفوس وأزعج سكونها وقرارها ، وسلبها راحتها وهناها مثل عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلى ظلمتها مثل عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعاً المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم ، فيجزيهم العالم شرا بشر . وأسعدهم جميعاً المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم ، فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة لاتضمر حقداً ، ولا تعرف غلا ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسىء ، وعطفت على الناس جميعاً ، من تمت إليه بصلة ، ومن لا تمت إليه بشىء .

ولم تحقد على الناس أو تضمر لهم فى نفسها شوا ، وما لها إلى الناس حاجة ولا رأى لها فى مطالبتهم بشىء مما فى أيديهم من مال أو جاه أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من حياتها بهذه العلالة القليلة التى تتعلل بها ، فأراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها .

وكانت أحاديثها التى تجرى بينها أحاديث طاهرة بريئة لاتطغى فيها الألسنة والأفكار ، ولا تتناول شأنا من شئون الناس خاصها أو عامها والغيبة رسول الشر بين البشر ، بل هى أس الشرور جميعها قديمها وحديثها ، لأن المرء إذا

اعتقد من طريقها الشر فى صديقه أو عشيره وملكته فكرة سوء الظن به أبغضه واجتواه ، وحذره واتقاه وكان لابد له من إحدى اثنتين : إما أن يصارحه ببغضه إياه ، فتصبح حياته معه حياة نكدة لانهاية لهمومها وآلامها ؛ أو يماذقه ويداوره ، فيصبح رجلا منافقاً كذاباً ؛ وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيرا أو شرا .

نعم إنها لم تكن تعتمد فى حديثها على العلم والتاريخ كما يعتمد الناس فى مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والأمثال والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ؛ ولكنها كانت لذيذة شهية رقيقة مستملحة . لأنها كانت تستمد جمالها ورائقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، وكتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذى لايقبل تأويلا ، ولا يحتاج إلى تفسير ؛ والذى يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله ؛ فلا حاجة به إلى من يدله عليه ، أو يرشده إليه .

وما هى إلا أيام قلائل حتى انتشر لتلك الأسرة الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكر عطر ؛ فأخذ الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ؛ ومروءتها وكرمها ، وأياديها الظاهرة والخفية ورحمتها الخاصة والعامة وإن لم يعرفوا لها اسماً ولا لقباً فإذا سأل سائل من السابلة أو الطارئين من هم ؟ كان جواب المجيب : إنهم قوم طيبون وكفى ؛ كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ينشق الناس طيبها ويحمدون عرفها ، وإن لم يعرفوا مكانها .

(١١)

العمـــل

وكان پول وهو فى الثالثة عشرة من عمره كأنه فى الخامسة عشرة قوة ونشاطا وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان فى مثل هذه السن ، وكأنما كان يشعر فى نفسه أنه مسئول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض فلابد له أن يعمل حتى يصل إلى الغاية يريدها ، وكان لايعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيما ، وقد وهبه الله قريحة وقادة وذهناً خصباً ، وذوقا سليما ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها ، فرسم فى ذهنه صور بديعة لذلك الوادى الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لإبرازها وتحقيقها فلم يخطىء ، ولم يضطر ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا فى القليل النادر مما يستعصى مثله على أمثاله فكان لايراه الرائى إلا غاديا أو رائحا أو مصعداً أو منحدراً ، أو متسلقا شجرة أو مكبا على قناة ، أو حاملا غرسا ، أو خائضا نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر الهندى ونخيل البلح والجوز وألوانا من الأزهار والأنوار تتألق فى أغصانها تألق الأحجار الكريمة فى التيجان المرصعة ، وأجرى المياه حول تلك الأغراس ، وفى خلالها بنظام دقيق كأنما قد خطها بالبركار وزرع الأكمات والروابى المشرفة على الوادى من جميع نواحيه فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقاق

الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها ، ولم يترك بقعة جدبة ، ولا أرضا صلبة إلا هز تربتها ، وأحيى مواتها فاستحالت إلى روضة أنف[1] تتدفق ثماراً وأزهاراً ، وتسيل عيونا وغدرانا ، وأعجب ماكان يعجب الناظر فى هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالى الجبال تنثر الخصب حولها نثراً ، وتدور بالربى والهضاب قلائد وعقوداً ، والخمائل والأشجار أوشحة ومناطق وتتلوى فى سيرها وتدفعها تلوى الحيات المذعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء تنبسط فى مذاهبها ومناحيها ، ثم تتلاقى أطرافها فتكون بركا صغيرة مستديرة تحف بها الأعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهدابها .

فإذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل إليك أنها المرايا[2] الصافيات فى أطرها[3] أو أحجار الفيروز فى خواتمها ، ولما كانت الأرض فى تلك الدائرة متدرجة غير مستوية فقد راعى أن يغرس الأدواح الباسقة فى البقاع المنخفضة ، والأشجار المتوسطة فى الأماكن المتوسطة والشجيرات القصيرة فى المشارف العالية ، فاستوت رءوس الأشجار فى علوها كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض ؛ أو كأنما غرسها غارسها فى بطحاء مستوية ، وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة فيغرس بين يديها الأشجار العظيمة المورقة فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة الهضبة فتتكون منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل كانوا يفيئون إليه من حر الهاجرة فإذا هم فى روضة يانعة من رياض الجنة تزخر أشجارها ، وترن أطيارها وترف ظلالها ، وتتهادى نسائمها ، وأجمل من هذا وذاك أنه غرس صفين متقابلين من الأشجار الوحشية الضخمة يمتدان على

---

(١) الأنف من الرياض : مالم يرعه أحد
(٢) المرايا : جمع مرآة .
(٣) الأطر : جمع إطار ، وهو مايحيط بالشيء .

مدى بعيد فتتألف منهما دهليز ضيق مستطيل لا تنفذ إليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل إليه أضواء النهار ، فإذا دخله الداخل خيل إليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الأرض وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السراديب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم .

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الربى والهضاب كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشا سعيداً هانئا متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم والسعداء في جناتهم وعيونهم ، فإذا انقضى النهار وأوت الشمس إلى خدرها صعدوا إلى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره وخمائله وكرومه ومروجه وحرجاته ، وظلاله وأضوائه ، فإذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رءوسهم بأضوائه وأنواره ، خيل إليهم أنهم بين سماءين متقابلتين : سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ؛ أو روضتين مترائيتين : تتألق في إحداهما الزنابق البيضاء على ديباجة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء على قطيفة خضراء .

(١٢)

التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة «اكتشاف الصداقة» لأن بول غرس في قمتها شجر الأثل ورفع في أعلاها منديلا أبيض يشبه العلم وناطه بخيوط مختلفة تسترسل في أسفل الشجرة ، فإذا لمحى مقبلا على البعد شد الخيط فانتشر المنديل

واضطرب فى الهواء ، وكان ذلك إعلانا للأسرة بقدومى كما يرفع العلم على قمة الجبل إعلانا بقدوم سفينة إلى الشاطىء .

وكذلك كان شأنهم دائما فى تسمية الأماكن والبقاع والجذوع والأشجار التى يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها إلى غرض ، ويسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل إلى أنهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية فتدب فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم « ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مسور ببضع شجيرات متسلقات من أشجار البرتقال كان بول وفرجينى يرقصان عليه معا فى ضوء القمر ، وأطلقوا اسم « الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها قصتها وتبثها أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى إلى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلا من القمح باسم « نورماندى » مسقط رأس هيلين وآخر من الأرز باسم « بريتانيا » مسقط رأس مرغريت ، إلى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا ، وقد هجروا بلادهم إلى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالا ، بعد ما فقدوها سكنا وموطنا ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من حرارة شوقهم إليها .

وأغرب من ذلك أن الزنجيين « مارى ودومينج » لم يكن قلبهما خاليا من ذلك الشعور الطيب الشريف ، شعور الوفاء للوطن والحنين إليه فأطلقوا اسم « أنغولا » و « وفول بودانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع شغفا بأوطانهما وعهود صباهما وضنا بذكراها أن تزول .

وكانت تعجبنى من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح الأثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأنى أعتقد أنها هى بعينها روح الوفاء والإخلاص ، وأن من لا خير فيه لماضيه فلا خير فيه لحاضره ومستقبله .

ومازلت مذ نشأت لا أوثر منظرا من مناظر الحياة ، ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم أعثر به في سفرة من أسفارى في بادية منقطعة أو صحراء شاسعة فأقف بين يديه ساعة من نهار وأرى في نؤيه وأحجاره وصخوره المبعثرة وأعمدته المتناثرة ونقوشه المحفورة على بقايا جدرانه صورة أولئك القوم البائدين الذين كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكأنى أسمع في صفير رياحه وعزيف جنه وغيلانه صائحا يصيح بى : لقد كان يعيش في هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ويفكرون كما تفكرون ، ويأملون في الحياة الطيبة الهانئة كما تأملون ، وهم وإن ذهبوا بأجسامهم ، وخلا وجه الأرض من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ؛ وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار حياتهم إلا أرواحهم وآثارهم التي بقيت على الأرض من بعدهم .

هنالك أشعر أنى قد انتقلت من حاضرى إلى ماضى ، وأننى أعيش في تلك العصور القديمة بين آبائى وأجدادى ، أحدثهم ويحدثوننى ، وأفضى إليهم بذات نفسى ، ويفضون إلى بذوات نفسهم ، فأقضى على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأنى وقد فاضت نفسى شعورا بأن النفس الإنسانية خالدة باقية لاتنالها منها عاديات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الأيام والأعوام .

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظرى من الجذوع والأشجار ، والصخور والأحجار ، وكل ما أمر به في طريقى مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء كأنى كنت أريد أن أمد الأجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدتنا الأجيال الماضية بذكرياتها وعهودها ، حفرت على ساق شجرة العلم كلمة «هوراس» اللاتينى : «وقاك الله شر العاصفة ، ولا عبثت بك إلا أيدى النسائم» وعلى جذع شجرة كان بول يجلس تحتها أحيانا ليشاهد منظر البحر الهائج قول الآخر « ما أعظم سعادتك لأنك لاتعرف إلها

غير إله النبات » وعلى باب كوخ هيلين ، وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها هذه الكلمة « وهنا ضمير صالح ونفس لاتعرف الخداع » .

وكانت فرجيني تستثقل هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لى مرة : حبذا لو أنك كتبت على شجرة العلم « ثابت دائما رغم اضطرابه » بدلا من كلمتك التى كتبتها ، فأجبتها : ذلك إنما يقال فى موقف الحث على الفضيلة ، فاحمر وجهها خجلا وصمتت .

ذلك كان شأن هذا الوادى فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شىء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبق من الوشم فى ظاهر اليد ، وأصبحت أعيش فى هذا المكان كأنى أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عاما .

(١٣)

مخدع فرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظراً أبدع ، ولا أجمل ، ولا أعلق بالقلوب ، ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذى كان يسمونه « مخدع فرجيني » ، وهو كهف صغير منحوت فى أصل الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة إحداهما منذ أربعة عشر عاما يوم ولادة ولدها بول ، وبذرت هيلين بذرة الأخرى منذ ثلاثة عشر عاما يوم ولادة ابنتها فرجيني ، فنبتتا مع الولدين وسميتا باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما فى جو السماء حتى تدانت سعفاتهما واشتبكتا كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة بول أطول قليلا من نخلة فرجيني لأن بول كان أسن من فرجيني بعام واحد وأطول قامة منها .

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى تركوه للطبيعة تذهب فى شأنه حيث شاءت من مذاهبها دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق فنبتت من حول المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأطوال ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب فى أعماق الأرض ، وذاهب فى جو السماء ، فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها إلى ظهر تلك الصخرة المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ترفرف فى الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء .

ولم يكن شىء من الأشياء أحب إلى فرجينى وأشهى إلى نفسها من أن تأوى فى أوقات راحتها وفراغها إلى هذا المكان الجميل لتمتع نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك النبع الغزير ومرأى تينك النخلتين البديعتين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه « مخدع فرجينى » .

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إلى هناك غنماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت إلى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضماً ، فكأنها معلقة فى الهواء ، أو كأنها تمثال مائل فى الفضاء .

وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها على حافة النبع أو جلست ناحية تحلب ألبان ماشيتها ثم تمخضها .

وكان بول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى حين كلما أمكنته الفرصة فيجلس إلى فرجينى جلسة هانئة سعيدة يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر الساحر البديع .

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية

وهى مقبلة من شاطىء البحر الهندى مع الظلام زمرا ترسم فى صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة وتغرد أغاريدها المختلفة الألحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضى فيه سواد ليلها ، فإذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء فى آفاق السماء طارت مع أضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء وكأن بول قد عز عليه ألا تتمتع فرجينى بذلك المنظر البديع الرائق فى جميع أوقاتها فأخذ ينقل إلى الأشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير فى أعشاشها فتتبعها أمهاتها وما هى إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها فى الروض الأريض موطناً جديدا تروح إليه وتغدو فأنست بها فرجينى أنساً عظيما ، وعطفت عليها عطف الأم الرءوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل لها فى حجرها حبوب القمح والذرة فينثرها بين يديها فإذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت إليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلتقط الحب من يدها مرة ومن الأرض أخرى فيكون منظرها فى اختلاف ألوانها وتمعجها واضطراب حركاتها أشبه شىء بمنظر الثوب الملفوف قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فماج بعضه فى بعض فتظل فرجينى لاهية بهذا المنظر الجميل مفتتنة به ، وبول مغتبط باغتباطها راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى كوخهما .

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه فألقيت نظرى حيث ألقى نظره فإذا هو محدق فى تلك البقعة التى سماها « مخدع فرجينى » وأخذ يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول :

أيها الولدان العزيزان ، إن أنس شيئاً فإننى لا أنس أيامكما العذبة الجميلة التى ملأتما فيها حياتى سرورا وغبطة ، وكنتما لى صديقين حميمين ما أنكر منكما ولا تنكران منى شيئاً ولا أنكما كنتما أبر الناس بى وأحدبهم على حتى

أصبحت أشعر أنى أعيش بجانبكما فى أسرتى بين أهلى وقومى ، وأن أيام صباى قد عادت لى بوجهها الطلق النضير ، فسلام عليكما حيث كنتما ، وسلام على عهدكما البائد الدارس ، عهد الصلاح والبر والفضيلة والشرف والحب والوفاء .

(١٤)

ليالى الشتـــاء

وكان إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء بردا وقرا . وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أجحارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالى سمر جميلة يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل يلقى أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كدس فى أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا ، فترى كأنها الأشباح الجاثمة ، أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث بول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهارها ، وما لم ينضج ، وما نقل منها إلى الظل ، وما أبقى تحت أشعة الشمس وعن الكروم وعناقيدها والقمح وسنابله والذرة وأعوادها وتحدثها فرجينى عن عصارة القصب ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الأشربة التى تعلمت من أمها صنعها واعتادت أن تقدمها لأسرتها صباح كل يوم ومساؤه ، وقد تحدثهم أحيانا عن حديقتها الصغيرة فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثجاج ، ونخلتيها الباسقتين ، المتعانقتين ، وما نبت حولها من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف إلى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ليلها ونهارها صادحة مترنمة كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها وتختلف رناتها ، وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولا ورعبا كقصة السائح المسكين الذى ضل بطريقه

فى إحدى الليالى الداجية المدلهمة فى بعض غابات بريتانيا الموحشة فخرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ، ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه فى أحشاء الغابة أو قصة السفينة التى عصفت بها الريح فى بحر الشمال وأحاط بها الموج من كل جانب وأخذت عليها جميع السبل فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها إلا بضعة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة فيتأثر بول وفرجينى لسماع أمثال هذه القصص تأثرا شديدا ، ويتفجر فى قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما أن لو وقفا فى يوم من أيام حياتهما إلى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت .

وكثيرا ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعاً ، إنهم ما كانوا يحفلون كثيرا بتفهم مضامينها ، واكتناه وأسرارها ، كأنما كانوا يشعرون أنفسهم أنهم أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من إيمان فطرى بسيط لا يحتاج إلى تفسير ، ولا توضيح ، ومن يقين راسخ فى أعماق قلوبهم يثلج صدورهم ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة حتى كان يخيل إليهم أحيانا أن الفضاء الذى بين أيديهم إنما هو معبد مقدس يصلون لله فى أية بقعة من بقاعه شاءوا ويرون الله فى أى مطلع من مطالعه أرادوا وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوة ، والبراهين الحسية مقام البراهين التوقيفية المقروءة ، وهل الرحمة الإلهية إلا تلك الثمرات التى نبتت لهم فى أرض مقفرة مجدبة لا ينبت مثلها غير الجهد والشقاء ؟ وهل القدرة الربانية إلا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التى اختلفت أوضاعها وأشكالها وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ؟ وهل العناية الصمدانية إلا ذلك التوفيق الغريب الذى ضم بعضهم إلى بعض على بعد دارهم واختلاف

مواطنهم ؟ فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن والمال والنشب .

وكانت تجرى بينهم تلك الأحاديث والطبيعة خارج الكوخ هائجة صاخبة، تجلجل رعودها ، وتعصف رياحها وتتدفق سيولها ، وتصخب أمواجها ، فيحمدون الله تعالى على أن كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الأمين الذى يفزعون إليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السنة أن تخالط أجفانهم، فينسلوا إلى مضاجعهم ، وينامون نوماً هادئاً ساكناً لا قلق فيه ولا اضطراب، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن لكل امرىء فى الحياة يومين : يوم بؤس ويوم نعيم فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعاً يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه إلا بما يحبون ويرتضون .

وكان الدهر يأبى عليهم أحياناً إلا أن يجرى حكمه فيهم كما يجزيه على الناس جميعا فيأذن لبعض غيومه القائمة أن تلم بسمائهم الصافية فتغشى صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو هم رأيت الباقين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من دونه بالذى أصيب به ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعا ، فإذا هو بارىء سليم كأن لم يشك قبل اليوم هما ولا ألما .

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة فى كنيسة « بمبلموس » ذات القبة العالية التى تراها هناك فى وسط ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعبا ولا نصبا ، فإذا وصلوا إليها رأوا كثيرا من الأثرياء وأرباب النعمة مقبلين فى هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم فى رونق بديع يملأ العين بهجة، والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو يجيبوا داعى مودتهم لأنهم كانوا

يعتقدون أن القوى لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك شيئا ، كما أنهم يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ضنا بنفوسهم أن يسرى إليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ويغشى لألاءها فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء أخرى ومضوا معهم على ذلك عهداً طويلا حتى عرفوهم حق المعرفة واستشفوا سريرة نفوسهم فعلموا أنهم أشرف من هذا وذلك فإنهم ما كانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة من الحاج ، أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين .

فإذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلا وعللوه كثيرا وحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغريت الدواء وفرجينى الابتسامات ، وهيلين التعزية،وپول النصائح الطبيعية ، فكانوا يعالجون فى آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان : عاطفة الحزن على أولئك المعذبين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم ، وتهوين آلامهم .

وكان منزلى على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صعدا حتى يصل إليه ، فإذا قضوا حاجتهم من مواساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلى ليقضوا عندى بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغداء على شاطىء جدول صغير تحت ظلة دانية من شجر الموز ، وكان غذاؤنا بسيطا جدا لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماكه ، وما يسقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به فى فضاء الجو من

سارح أو بارح ، وربما ضممنا إليه شيئاً من التوابل والأفاوية المركبة من الأعشاب الهندية الحارة ، فإذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطىء البحر لنمتع أنظارنا برؤية أمواجه ، وهي مقبلة علينا يتلو بعضها بعضاً حتى تتكسر تحت أقدامنا ، ثم تنبسط قليلا على ذلك الشاطىء الرملي الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن . وكان بول إذا رآها مقبلة فر من بين يديها كأنه طريدها الذى تطلبه . وربما تلكأ في جريه عمداً حتى تدركه فإذا هو مكفن في كفن صاف من نسيجها الأبيض ، فتصرخ فرجينى حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجد أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها : يخيل إلى وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أنى أرى بين كل موجتين قبرا محفوراً ، ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رشدها وتستأنف سرورها ومرحها فيدعوها بول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التى لاهجر فيها ، ولايشوبها عار ، ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لاأزال أذكر منها حتى اليوم قطعة « البحر الزاخر » التى يثنى فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعى نعياً كثيراً على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلباً للثراء الواسع ، والمال الكثير بدلا من بقائهم في أوطانهم بين أهليهم وعشيرتهم ، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق ، وكان يخطر لفرجينى أحياناً أن تمثل بعض الروايات القصيرة التى سمعتها من أمها فتظهر على مسرح الشاطىء الرملي حاملة جرتها على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج ومارى ومرغريت في طريقها كأنهم رعاة مدين يحولون بين ابنة شعيب وبين البئر ، فيلمحها بول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق

كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر فيضع الجرة فوقها فكأنه يكللها بإكليل الزواج فأقوام أنا بتمثيل دور « شعيب » وأزوج ابنتى « صفورة » من الفتى « موسى » .

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة « راعوث » حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لاأهل لها ولا رحم ، فتظل سائرة فى طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين ، وكان يمثلهم ، دومينج ومارى ومرغريت يحصدون فى مزرعتهم فتتبع خطواتهم وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها بول ، وهو يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج فتذرف عيناه الدموع رحمة بها ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة فى منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها .

وهنا تذكر هيلين حياتها الأولى ، وأنها كانت أشبه شىء بحياة تلك الفتاة الإسرائيلية المسكينة وأنها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل مالقيت ، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكى بكاء طويلا .

ثم لاتلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التى ختمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلا ، وتتفاءل خيراً لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد .

وجملة القول أننا كنا نتمتع فى ذلك اليوم بجميع مايتمتع به السعداء فى منتدياتهم ومجتمعاتهم ، ومعاهد أنسهم ولهوهم من أكل وقصف ، ورقص وتمثيل ولعب ومزاح ، لافرق بيننا وبينهم إلا أننا لانزخرف المسرح الذى نتنقل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطىء والصحراء والسماء والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الأمواج وزفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون ، فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالا .

ولانزل هكذا حتى تدنو ساعة الأصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع

على قمة الجبل متوهجا كاللهب الأحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية فى عرض الفضاء وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان ، كأنها الدنانير المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر فى سكون ذلك الجو وهدوئه إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ويخيل للناظر إلى الجذوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم كان قد عمرها فى سالف العهد ، ثم انحسر عنها فإذا هى أعمدة صدئة من البرنز القاتم ثم لا يلبث الظلام أن يمتد وينبسط فإذا الفضاء سكون ووحشة ، وإذا البحر خشية وجلال ، وإذا الطير جاثمة على أوكارها تفر إليها من وحشة الظلام وهوله ، وإذا كل شىء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الآذى(١) تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش(١) الضارية ، فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعة ذاهلين مستغرقين وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود إلى أنفسنا فيودع بعضنا بعضا ، ثم نفترق إلى أكواخنا.

(١٥)

آدم وحواء

نشأ بول وفرجينى فى هذه الجنة الأرضية ، منشأ أبوينا الأولين فى جنتهما السماوية ، فكان بول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه ، وبساطة الطفل وسذاجته ، وكانت فرجينى مثال حواء لها جمال الأنوثة وحلاوتها ، ودعة النفس وعذوبتها .

وكان يعيشان فى معتزلهما هذا حرين مطلقين لا يسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التى تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم فى تلك البلاد التى يسمونها

(١) الآذى : موج البحر .

بلاد الحرية والطلاقة ، ولاتسجنهما العلوم والمعارف فى سجنها الضيق المظلم الذى يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب فى فضاء الكون كما يشاءان .

ولم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار ، ولاتقويم لمعرفة الفصول والأعوام ، ولم يتلقيا درسا واحدا فى علم الهيأة ، ونظام الكواكب والنجوم . ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ماتمنح العلوم والمعارف أمثالهما فاستعانا بالأشعة والظلال على معرفة الأوقات ، وبنضوج النبات وظهور الأثمار وتلون الأزهار على معرفة الفصول ، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد مامر بهما من السنين والأعوام فكانا يقولان « قد حان وقت الغداء » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها و « قرب الليل » إذ التفت أوراق التمر هندى على أثمارها ، وكانا إذا وعدا أحدا بزيارة جعلا ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج النارنج ، وإذا سألت فرجينى عن عمرها أجابت : قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربع عشرة مرة وأشجار البرتقال ثمانية وعشرين وإذا سئل بول بكم يكبر فرجينى[1] أجاب بمقدار مابين النخلتين الماثلتين على حافة النبع كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما إلهان من آلهة الحقول التى تعيش بينها وترعاها .

فكانا لايعرفان تاريخا غير تاريخهما ، ولايطالعان مصورا غير مصور جزيرتهما ولا يقرآن كتابا غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى فى كل مايأخذان ، وما يدعان .

وكانا إذا خلوا بأنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لايتكلفان فيها ولايتعملان ، ولايحاولان أن يضعا حجابا بين مايدور فى سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما .

---

(١) يكبر فلان فلانا ، يزيد عنه فى العمر .

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكانى ، وكان بول قد عاد من عمله ساعة الغروب ، فرمى بفأسه وحقيبته إلى الأرض وجلس إلى فرجينى يقول لها : إنى لأراك يافرجينى وأنا متعب مكدود ما أكاد أتماسك ، فأنسى تعبى وشقائى وكأننى لم أحمل يومى فأسا ، ولم أفلح أرضاً ، وربما وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل وأنت فى سفحه فيخيل إلى أنك وردة بين الورود النابتة حولك ، إلا أنك أنضر منها حسنا ، وأطيب أريجاً ، فإذا غبت عن ناظرى وراء أكمة من من الأكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذى أنت فيه لأننى أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت وأنى حللت فإذا برق لى شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادى ، فلا أحتاج للسؤال عنك فإذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خيل إلى لجمال مشيتك ، ورشاقة حركاتك كأنك قطاة تنتقل على بساط الخضرة وأنك موشكة أن تستقلى بجناحك فى جو السماء .

إنك كل شىء يافرجينى ، إنك حياتى التى لا أستطيع أن أعيش بدونها ، بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة . إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذى يجول فى أديمك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان .

أسمع صوتك الذى هو أشبه شىء بصوت الطائر الغرد فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدى فى يدك فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور ! .

أتذكرين يافرجينى يوم حملتك على ظهرى واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرير ؟ .

لقد كنت فى ذلك الوقت تعبا واهنا ، ولكننى ما شعرت بملامسة جسمك لجسمى حتى خيل إلى أننى قد استحلت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت على فى تلك الساعة أن أطير بك فى آفاق السماء لفعلت .

لا أستطيع أن أفهم ما هذا الذى يؤثر على منك يافرجينى ؟ لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلم أضطرب حين أراك ، ولم أرتعد حين يلمس جسمى جسمك ؟ ! .

إنك لاتستطيعين أن تحبينى كما تحبنى أمى ، أو تعطفى على عطفها أو تقاسمينى همومى وآلامى مقاسمتها ، ولكننى أشعر أن الذى أضمره لك من الحب والعطف فوق الذى أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامى الطريقان : طريقى إلى الكوخ فلم أنتبه إليه ، وطريقى إليك فجئتك دون أن أشعر بما أفعل أو أعرف لذلك سببا .

ماأحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هى السبب فى ذلك ، فإن أنس لاأنسى صورة ذلك الألم الشديد الذى ارتسم على وجهك يوم جئت لك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموع الغزار التى ذرفتها رحمة بها وإشفاقا عليها ، ثم ماخاطرت به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها فى سبيلها .

إنك طيبة القلب يافرجينى ، إنك تحبين الخير للخير لا تطلبين جزاءً ولا أجرا ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم جميع الناس .

تعالى إلى جانبى وخذى هذا الغصن الذى قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى وضعيه حين تنامين تحت سريرك فإنه يملأ لك فضاء الكوخ عطرا وشذى ، وخذى هذا القرص من العسل فقد عثرت به فى جوف صخرة عالية فى قمة الجبل ، وسيكون فطورنا فى الصباح شهيا جميلا .

تعالى إلى يافرجينى وضعى رأسك على فخذى لأشعر بالراحة من جميع متاعبى وآلامى وتحدثى إلى قليلا فحديثك غذاء نفسى وراحة ضميرى .

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له :

أترى يابول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على رءوس الصخور وذوائب الأشجار ، ومنظر ذلك الشفق الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللآلىء اللامعة الجميلة المنتثرة على سطح الماء ؟ ! .

إنها جميلة جدا ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسى كما يبعثه جلوسى بجانبك ، وامتزاج أنفاسى بأنفاسك .

إننى أحب والدتى حباً جماً ، ولكننى أحبها أكثر من كل وقت فى الساعة التى أراها تحنو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك ياولدى ! وربما غفرت لها إغضاءها عنى أحياناً ، ولكنى لا أستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك .

إنك تتساءل فى نفسك : لم تحبنى أكثر من كل شىء فى العالم ؟ أما أنا فإننى أحبك هذا الحب نفسه ، ولكننى لا أسأل نفسى عن سبب ذلك ، لأنى أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن فى منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتآلفان حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة .

انظر إليهما ! هاهما يتصايحان ويتهافتان على بعد ما بينهما ، كأن كلا منهما يقول لصاحبه : تعالى إلى جانبى ولا تفارقنى ، فإننى لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيدا عنك .

وكذلك نحن يابول نشأنا فى منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً واحدا ، ونمنا فى مهد واحد ، وابتردنا فى حوض واحد فأصبحنا شخصاً واحدا ، فإذا افترقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه : أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتى فى سفحه ، كما يفعل ذلك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى تتلق .

تقول إنك أحببتنى منذ ذلك اليوم رأيتنى فيه أعطف على تلك الجارية

السكينة ، وأنا أقول لك إننى أحببتك من ذلك اليوم نفسه ، فإننى لا أستطيع أن أنسى أنك أوشكت أن تخاطر بنفسك فى سبيلى حينما عزمت على مقاتلة الرجل الشرير من أجلى ، بل خاطرت بها فعلا حينما حملتنى على ظهرك وأنت تعب مكدود واجتزت بى ذلك النهر الزاخر المتدفق لاتعلم أتصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك .

إننى أجثو كل يوم بين يدى ربى أسأله الرحمة لأمى وأمك ومارى ودومينج حتى إذا مر ذكرك على لسانى ارتعشت شفتاى وشعرت كأننى أرتشف على الظمأ جرعة باردة ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها .

لم تتسلق الصخور من أجلى يابول ؟ ولم تجشم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذى تكابده طول يومك ؟ إننى لا أفكر فى شىء وأنت غائب عنى سوى أن تعود إلى سالماً موفورا ، فإذا رأيتك كنت الهدية الثمينة التى تقدمها إلى ، وتستحق من أجلها شكرى وحمدى .

(١٦)

الخفقة الأولى

ما لفرجينى حزينة مكتئبة لا تضىء الابتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل ؟ ! .

مالها واجمة صفراء تمشى مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأن هما من هموم الحياة الثقال يملأ مابين جانحتيها ولاهم هناك ولاحزن !. مالها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذى هو أعز عليها من نفسها التى بين جنبيها ؟ !

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس فى طلوعها وغروبها ، والطير فى غدوها ورواحها ، لا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسرى همومها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؟ ! .

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة إلى حياة الهموم والأكدار .

نعم قد تحولت الصداقة فى قلب فرجينى إلى حب ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها ، وكما أن المرأة الفارغة تشعر بتغيير فى جميع حالاتها الجسمية إذا بدأت بذرة الجنين تنمو فى أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير فى جميع حالاتها النفسية إذا أحست بدبيب الحب فى قلبها ، وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام .

لقد كانت فرجينى تجهل فى مبدإ أمرها حقيقة الحال التى طرأت عليها ولا تفهم منها شيئاً سوى أنها قلقة مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الأول ، ولا تجد فى الجلوس إلى أسرتها ولا فى الذهاب إلى «مخدعها» الراحة التى كانت تجدها من قبل ؛ فكانت تهيم على وجهها فى القفار والغابات وضفاف الأنهار وقمم الجبال ، ما تكاد تستقر فى مكان واحد ، فإذا وقع نظرها على بول فى بعض غدواتها أو روحاتها طارت إليه فرحاً وسروراً ، وبسطت إليه يدها لتعانقه ، فإذا دانته انقلبت فجأة من سرور إلى حزن ، ووقفت فى مكانها جامدة جمود الدمية فى محرابها يتلهب وجهها حمرة ، ويرفض جبينها عرقاً ، فيعجب بول لشأنها ، ويظل يقول لها : إن الخضرة اليوم زاهية جدا ، وإن الشمس ساطعة متلألئة تضىء كل شىء حتى الأنفاق والأغوار ، وكل ما فى الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يافرجينى ، فهل لك أن تحدثينى ما الذى ألم بك ؟ وما هذه الغبرة القاتمة التى

تلبس أديم وجهك ؟ ثم ينقض عليها ليضمها إلى صدره كعادته فتملس من بين يديه إملاساً ، وتركض هاربة إلى أمها لتضع رأسها فى حجرها ، فيظل بول واقفاً مكانه يعجب لأمرها عجباً شديداً لا لأن الذى يضمر لها من الحب أقل من الذى تضمر له ولا لأن نفسه خالية من الهم الذى يخالط نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة لا تملك من الصبر والجلد بين أيدى النكبات النفسية التى تنزل بها ما يملك الرجل فإذا أحبت لأول عهدها بالحب ، وكانت شريفة فاضلة خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما هى بجنون ولا خبل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها .

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر الذى تشتد فيه حرارة الشمس فى تلك المنطقة اشتدادا عظيماً ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية كأنها السهام المنبعثة من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التى تعتادها طول العام ، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالا ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهلها ، وتشقق ما أرادت من أطرافها وأنحائها ، فيثور الغبار ملتفاً فى جو السماء ثم يجمد فى مكانه ما يتزحزح ولا يتحلل كأنه العمد المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أتون مشتعلة تنفث أوارها من حولها فتلتهب الأجواء بالتوائها حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس إلا زفيرا ، ولا مستنشق إلا شواظاً ولهيبا ، وحتى ما يجد المبترد ضحضاح ماء فى غدير من الغدر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص النارى اللاصق به ، وتتساقط الماشية فى ظلال الأشجار وفى سفوح الجبال واهنة متضعضعة مادة ألسنتها إلى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء إلى الله تعالى أن يجود عليها بقطرة تبل غلتها ، وتطفىء لاعجها ، وكأن ثغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الجاثم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة فإذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئا من لهيب ذلك الأتون

المستعر ، وظهر القمر فى أفق السماء أحمر كامداً كأنه الوجه المخضب بالدم ثم يمشى فى طريقه متثاقلا متظالعاً كأنما هو يسبح فى لجة عميقة من السحب المحيطة به .

فى ليلة من تلك الليالى الداجية السوداء عجزت فرجينى عن أن تأخذ لنفسها راحتها فى مضجعها وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها إلى مخدعها ، عساها أن تجد فيه ما يروح عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها أنها لم تجد من جدولها المترع المتدفق إلا خيطاً دقيقاً يلمع فى ضوء تلك الأشعة الباهتة كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حرة سوداء ، ثم مشت إلى حوضها الصغير التى اعتادت أن تستحم فيه فلم تجد فيه إلا ضحضاحا من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسها ونزلته فاستطاعت أن تجد قليلا من الراحة ، وكان أول ما مر بخاطرها فى تلك الساعة بعد أن عادت إليها نفسها ذكرى تلك الأيام الماضية التى كانت تستحم فيها مع بول وهما طفلان صغيران فى هذا الحوض الصغير وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ويتسلقان النخيل والأشجار ليقطعا أغصانها أو يجنيا ثمارها ، ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم بول ، وقد طالت عثا كيلهما ، وانتشرت سعفاتها ، وكبر جوزها واصقت كل منهما بالأخرى لصوقاً شديداً ، فأثار ذلك المنظر فى نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ولا أن تفهم ما الذى يقلقها منه ، فلم تطق البقاء فى مكانها لحظة واحدة ، فنهضت إلى ثوبها فأسبلته على جسمها . واندفعت راكضة إلى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطاً شديداً ، كأنما تريد أن تبثها ألمها وتفضى إليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها فى فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج فى صدرها أن يستحيل إلى زفير فشهيق فبكاء فتذرف من دموعها

ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها ، وأمها صامتة ساكنة تفهم كل شيء ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة وأن يقيها العثرات والزلات .

ولم يزل الحر آخذا في اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة ما زالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة ظلة سوداء فاحتجب قرص الشمس وتلفعت الجبال والهضاب والربى والآكام بأردية بيضاء من الضباب، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين ، ثم ما لبث الرعد أن قصف قصفا شديدا دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شراراته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ؛ فأثار بعضا منها وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الأودية والقيعان ، وسبحت فيها الربى والهضاب وما هى إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحرا عجاجا يعب عبابه وتصطخب أمواجه ، اختفى كل شيء من هواديه وأعلامه وأطمه وذراه ، ولم يبق طافيا منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العالية التى يرفرف فوقها العلم الأبيض ، علم الاستكشاف فكان منظرها في وسط ذلك البحر العجاج منظر السفينة المضطربة ، في أيدى الأمواج الثائرة ، فصعدت إليها تلك الأسرة المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها .

وظلت الحال على ذلك عـــدة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الأشعة البيضاء في أنحاء الفضاء وأخذ بول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعابا ممتدة في أطراف الحوض تنحدر منها إلى البحر حتى لم تبق منها بعد ساعة إلا ما ركد في الحفائر والأغوار ، والبطون والوهاد ، فذعر بول وفرجيني لمنظر الأشجار الساقطة ، والجذوع المتهافتة والأغصان المتناثرة والأزهار المبعثرة كأنهم يشهدون أطلالا بالية قد عصفت بها وبساكنيها أيدى الحدثان ، وعوادى الزمان .

وخطر لفرجيني أن تذهب لزيارة حديقتها لترى ما فعلت تلك الحوادث بها ، فعرض عليها بول أن يصحبها فسارا معا حتى أشرفا عليها فإذا هى قفر يباب لا شجر ، ولا طيور ، ولا أعشاب ، ولا جداول ، ولا غدران ، إلا ما كان من تلك البلابل الضاوية الواقفة على ذوائب بعض الأشجار ترعد بردا ، وتغرد تغريدا شجيا ، هو بالأنين والبكاء أشبه منه بالترجيع والغناء .

فأطرقت فرجيني إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت إلى بول ، وقالت له : لقد ضاعت كل آمالى فى الأرض يا أخى فلم يبق لى إلا أملى فى السماء ! لقد غرست تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت فى خلالها الجداول والغدران وأنشأت فى أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتى ، والأعشاش لطيورى ، وكانت أنسى وراحتى وملجأ همومى وأحزانى .

وها هى ذى أيدى الحدثان قد عصفت بها وعفت رسومها ومعالمها ومحت سطورها من كتاب الدهر كأن لم تغن بالأمس ، فلم يبق لى ما آنس به فى هذا العالم ، ولا ما أسكن إليه ، فلأطلب لنفسى سعادة غير هذه السعادة فى عالم غير هذا العالم لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه أيدى الصروف والغير .

فاضطرب بول عند سماعه هذه الكلمات وسرت فى نفسه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصمت هنيهة ، ثم التفت إليها وقال لها : هونى عليك الأمر يا فرجيني فكما يعرض الموت على الحياة تعرض الحياة على الموت وأعدك وعدا صادقا أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترين عما قليل خمائلك وأشجارك ومياهك وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول فيعود لك أنسك واغتباطك وسرورك وابتهاجك ، فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة كأنما تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملأ الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتدرى ما هو خير من هذا كله يا بول ؟ قال: لا ، قالت :

إن لسميك « پول » الرسول عندى منزلة لا تعدلها منزلة أخرى . وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها فى أطواء ثيابك فرجائى إليك أن تهدينى إياها ، قال : لا أحب إلى من ذلك وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظليم ليأتى بها ، وهى صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت فى قلادتها منذ زمن بعيد ، فلما ولدت ولدها پول ورأت فى ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عاديات الدهر ، وغوائل الأيام ، ولم يزل حاملا إياها حتى كبر وأينع فاحتفظ بها فى صندوقه بين ملابسه كأعز شىء لديه حتى سمع فرجينى تقترح عليه أن يهديها إياها فلم يكن شىء من الأشياء أحب إليه من أن يفعل راضياً معتبطاً ، وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحاً فقدمها إليها فسرت بها سروراً عظيماً . وجرى من البشر فى وجهها طلقاً غدقاً ، وقالت له : ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندى ما حييت ، ولن تفارق عنقى قط حتى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى ، ولن أنسى أبد الدهر أنك قد أهديت إلى الشىء الوحيد الذى تملكه ، فحنا عليها وهم أن يحتضنها إلى صدره فأفلتت من يده برفق وركضت هاربة إلى حجر أمها كعادتها .

فوقف پول فى مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب تعبث بعقله الوساوس والأوهام .

ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما غريبة مضطربة لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوماً من الأيام بهيلين وقالت لها لم لا نزوج پول من فرجينى فقد بدآ يشقيان فى عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر إلى ما هو أعظم شراً من ذلك ، وعندى أنه متى تكلمت الطبيعة وجب الإصغاء إليها والإذعان لها ، وما شقى الناس هذا الشقاء الذى نراهم يعالجونه كل يوم إلا لأنهم تمردوا على الطبيعة وخلعوا طاعتها وسولت لهم نفوسهم السير فى طريق غير طريقها ، فقالت هيلين : إن الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون

شأنهما غدا إن قسم لهما أن يلدا أولادا كثارا فى قفرة مثل هذه القفرة لايعين المرء فيها على العيش غير المال ؟ إننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ فى العالم من عناء وشقاء فى سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما – وهما ضعيفان ساذجان ، وقد رحلنا عنهما إلى عالمنا الآخر الذى ينتظرنا ورحل معنا دومينج ومارى – بقوة تعينهما على أمر حياتهما العائلية المستقبلة ، وإن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمى ، وأرى أننى أسير سيرا حثيثا فى تلك الطريق التى يسير فيها الذاهبون إلى حفائرهم ، وأن ليس بينى وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخا هرما لايكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري على مقربة من ذلك فلا يبقى لهما مساعد ، ولامعين .

والرأى الذى أراه أن نباعد بينهما فنرسل بول إلى بعض أصقاع الهند ليتجر فيها بما يتجر به الأوربيون المنتشرون فى تلك البلاد ، علة يتلهى عن فرجينى بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك مايعينه على أمرها وأمره غدا .

ثم اتفقتا على أن تستشيرانى فى هذا الأمر فأشرت عليهما بما رأيتا ، وقلت لهما : إن فى هذه الجزيرة وفيما حولها من الجزر كثيرا من السلع التى تنفق نفاقا عظيما فى الأسواق الهندية كالقطن والآبنوس والأصباغ وما إليها ، فإذا سافر بول فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغريبة فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له فى مستقبل حياته خيرا كثيرا .

فعهدتا إلى أن أفاتحه فى هذا الشأن فخلوت به ذات يوم وأنشأت أحدثه حديثا طويلا عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب فى آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت إليه بذلك المقترح فأصغى إليه وهو صامت واجم لايقول شيئا حتى انتهيت من حديثى ، فرفع رأسه إلى قال : وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعود فائدة من عمل الفلاح الذى يقوم بزراعة حقل من الحقول

لايعطيه إلا القليل من جهده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه منه ضعف مابذل له خمسين أو ستين مرة ؟ ومتى كانت البحار ياسيدى وطاء لينآ أخاطر فيه بنفسى لأربح شيئا أستطيع أن أربحه من بيع مافضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار فى أسواق هذه الجزيرة ، وما حولها من الجزر ؟ وأية حاجة بنا إلى المال الكثير ؛ ونحن والحمد لله فى سعة من العيش لانشكو جوعاً ، ولا ظمأ ، ولا ضيقا ، ولا ضجراً ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة فى الحياة فوق المنزلةالتى نحن فيها ؟ ولا أكتمك ياسيدى أنى أخاف المال وأخشاهخشية شديدة ، وأقشعرمنذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لانزال سعداء فى هذه الحياة مادمنا بعيدين عنه ، وعن التفكير فيه ، فإن قدرلنا يوما أن نشقى فيها ، فإنما شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التى قسمالله لنا ، ولانجنى على أنفسنا بالتكليف ، والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التى لانعرفها ، ولا نعرف غايتها ، ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا .

فوقفت بين يدى هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفا وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أنكر عليه أمراً ، ولا أفضى إليه بسر ذلك المقترح الذى اقترحته عليه ، ضنا به أن يهلك يأسا وجزعا .

(١٧)

الرسالة

وهنا وصلت سفينة فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها فى الماضى من قسوتها عليها ونبوها بها واطراحها إياها ، وأنها قد بلغت السن التى تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوى رحمها يخفق بجانبها لأنها تعيش فى بلد لاأهل لها فيه ولا رحم ، فهى تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ، فإن حال دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلا منها لتكون بجانبها فى ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصى لفرجينى بجميع ثروتها من بعدها . فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وأن ذلك الوادى سيقفر منها ، ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمرته أعواماً طوالا ، فوجمت مرغريت وأطرقت فرجينى ، وجمد بول مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج ومارى ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها : هدئى روعك ياصديقتى فإنى لن أفارقك قط ، وما أحسبنى مستطيعة ذلك لو أردته ، فقد سعدت بك برهة من الزمان لاأستطيع أن أنساها أو أنسى يدك البيضاء فيها ، ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم : كونوا مطمئنين يا أولادى ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن فى التربة التى تعيشون فيها ، ولقد جرح الدهر قلبى فيما مضى جرحاً دامياً فكنتم أنتم أطباءه وأساته ، وما زلتم به تنفون عنه غثاثته وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم وإخلاصكم وعطفكم ورحمتكم حتى التأم أو كاد فلن

أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على إحسانكم شر الجزاء . ولئن كانت قد بقيت فى أعماق قلبي بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك مالا يد لكم فيه ، ولا حيلة لكم في أمره ، ولاتوجد قوة فى العالم سواء أعشت فى هذا الكوخ الحقير أو فى ذلك القصر العظيم تستطيع ان تشفينى من دائى إلا أن يمد الله يد معونته ورحمته .

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسرورا وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ويهنئونها بوفائها وإخلاصها ، فلله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ؟ إن الثروة الطائلة التى يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً فى سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضا فيأبونها ويطيرون فرحا بالخلاص منها .

وإنهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتا غريبة فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيدا عظيما يركب مركبا فارها ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ ، وما أتم كلته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فإذا هو حاكم الجزيرة المسيو « لابوردينيه » فنهضوا له إجلالا وإعظاما وحيوه بتحية الحاكمين وقدمت له مرغريت كرسيا من القش فجلس عليه ، وقدمت هيلين شراب الأرز فى إناء بسيط من القرع فتناوله مغالبا نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينيه فى أنحاء الكوخ ، فعجب لحقارته ورثاثته وبساطة مايشتمل عليه من الآنية والأثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين فى انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة . وأنها لم تلجأ إليه فى ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التى تحتاج إليها ، وكان بول واقفا بجانب الباب يسمع حديثه ويلقى عليه نظرة شزراء وكأنما قد ألهم مايدور فى نفسه ، وماقدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له : إنك لست بصادق فيما تقول ياسيدى ، لأن أمى ذهبت إليك فى بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسى بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيرا إذ كفاها مؤونة حمل منتك

أو منة أحد من الناس غيرك ؟ فالتفت الحاكم إلى هيلين وقال لها : ألك ولد أيضا ياسيدتى ؟ قالت : لا ، ولكنه ولد صديقتى مرغريت ، وهو يسمينى أمه لأنه ربى مع فرجينى فى مهد واحد ورضع معها ثديا واحدا ، وأحبها حبا لايحبه الأخ أخاه فنظر إليه الحاكم ، وقال له : ادن منى يا ولدى ، فدنا منه ، فمسح بيده رأسه ، وقال له : إنك لاتزال صغيرا يابنى ، فإذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين يسمونهم حكاما ، وعلمت أعظم مايشقون به فى حياتهم أنهم ليسوا أحرارا فى إجراء العدالة بين الناس وإراحة الحقوق على أهلها . وتحرى الصدق فيما يقولون والفضيلة فيما يفعلون .

فتناول بول يده وهزها هزا شديدا ، وقال له : أشكر لك صدقك وصراحتك ياسيدى ، وإن كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أنى أستطيع أن أتخذك صديقا لى منذ اليوم ، فابتسم الحاكم ، وقال : ولى الشرف العظيم بذلك ياولدى .

ثم أشار إلى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت إليهم جميعا فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها : لابد أن تكونى قد قرأت الكتاب الذى أرسلته إليك عمتك اليوم ، وقد جاءنى منها كتاب فى البريد نفسه تطلب إلى فيه أن أزورك ، وأبذل كل ما أملك من الجهد فى حملك على السفر إليها ، أو أرسل ابنتك فرجينى بدلا منك ، وأرى أن ترسلى إليها ابنتك ، فهى فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأى أن تدفنى مثل هذه الحياة الغضة الندية فى مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعيها لاستقبالها وإنى وإن كنت أعلم ، أنى أطلب إليك ما يشق عليك ، ويفت فى عضدك ، ولكننى أعلم أيضا أنك أرحم بابنتك وأحنى قلبا عليها من أن تحولى بينها وبين تلك السعادة التى تنتظرها هناك من أجل متعة نفسك برؤيتها جالسة

بين يديك ، وأعتقد أنك لا ترين بأسا من التضحية بشىء من عواطفك النفسية فى سبيل راحتها وسعادتها وهناءة عيشها طول أيام حياتها ، ولقد كتب إلى وزير المستعمرات أن أعنى بهذه المسألة عناية كبرى ، وألا أدعها تفلت من يدى ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ومعنى ذلك عنده أن آخذك بالشدة فى هذا الأمر ، وأكرهك منه على مالا تحبين ، ولكنى لم أحفل بكلامه ، ولم أكترث له ، بل جئت بنفسى لأعرض عليك الأمر عرضا ، لا لألزمك به إلزاما ، وإنى أكل إليك ، وإلى رحمتك وشفقتك . ولعقلك ورزانتك ؛ مستقبل هذه الفتاة المسكينة فاختارى لها مايجب أن تختاره الأم الرءوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع فى مستقبل الأيام وستسمعين غدا من أحاديث هناءتها ورغدها ورفاهيتها ونعمتها ، ماينير لك ظلمة الوحشة التى تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت إليك بعد قليل من الأيام ، فإن عمتك على ما أعلم فى الدور الأخير من أدوار حياتها ، وهى هامة اليوم أو غد .

فقالت له هيلين : إننى ما تمنيت على الله فى حياتى شيئا سوى أن أرى ابنتى سعيدة فى حياتها ، هانئة بعيشها ، إلا أننى لا أحب أن أفتات عليها فى أمر من أمورها فلا بد لى من أخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد ؛ وأرجو أن يعيننى الله على ذلك . وأظن أنى أستطيع أفضى إليك بالأمر غدا أو بعد غد ؛ قال: أرجو أن تعجلى بقدر ما تستطيعين ؛ فالسفينة موشكة على السفر ؛ ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ؛ ولا أعلم متى تعود بعد ذلك .

ثم نهض قائماً وأخرج من جيبه كيسا كبيرا مملوءا بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال : هذه هدية عمتك إليك لتستعينى بها على شأنك وشأن فرجينى وودعها ومضى .

(١٨)

الوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيرا على نفس هيلين ، بل صادف هوى من قلبها ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها لاتتمنى على الله فى حياتها شيئا سوى أن ترى ابنتها سعيدة فى حياتها ، هانئة بعيشها ؛ إلا أنها لا تحب أن تفتات عليها فى أمرها فإن الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثا طويلا قالت لها فيه إنى أصبحت يابنيتى امرأة عليلة منهوكة ؛ لا قوة لى ولا عزيمة ؛ ومامرغريت بأحسن حالا منى ؛ وقد صار دومينج ومارى شيخين ضعيفين والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الأخرى ، وبول لايزال فتى غريرا عاجزا عن أن تستقل بنفسه فيما يعالج من شئونه ؛ فماذا يكون حالكما غدا لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ؛ وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غدا بائسين أشقياء لا يملكون لأنفسهم ولا تملكون لهم نفعا ولا ضرا ؟ وقد مثلت لنفسى بين أن تعيشى بجانبى فأراك فقيرة معوزة تشقين ليلك ونهارك فى جمع قوتك كما تشقى الأجيرة ؛ وبين أن تفارقينى بضعة أعوام أسمع فى أثنائها على البعد من أنباء سعادتك وهناءتك ونعمتك ورغدك ، مايثلج صدرى ، ويذهب بوحشة نفسى ؛ فوجدت أنى أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الأولى ، فسافرى يابنيتى ؛ وكونى غدا عكاز شيخوختى وعماد حياتى ، ومعينتى على دهرى .

فرفعت فرجينى رأسها إليها فإذا دمعة رقراقة تتلألأ فى عينيها ونطقت بتلك الكلمة التى عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت : « وكيف لى بترك بول يا أماه ؟ » .

قالت : إنما أطلب إليك السفر من أجل بول ، لا من أجل غيره فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته فى سبيل العمل ما أحسب أنه قاتله وذاهب بحياته إن طال عليه أمره فارحميه واشفقى عليه وأنقذيه من بؤسه وبلائه ؛ ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه فى سبيل ذلك حتى الموت ضناً بك وبسعادتك . فكونى مثلى وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، ولكن حبك إياه عظيما مجيدا كحبى إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجد إلا إذا بنى على أساس من التضحية والبذل .

قالت : ألم تقولى لى يا أماه قبل اليوم أن للكون إلها يتولى شأنه ويرعاه وقد رعانا وتولى شأننا بالأمس ، فلم يتخلى عنا غدا ؟

ألم تقولى لى إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وأن العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التى لا تفنى ، فلم تطلبين إلى اليوم أن أعتمد فى حياتى على غيره والتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟ .

دعينى أعيش بجانبك يا أماه ، وبجانب بول ومرغريت ودومينج ومارى ، وعلى مقربة من شويهاتى وأعنزى ، وطيورى وعصافيرى وبين أحضان هذا الوادى الجميل الذى أنست به وأحببته وألفت ليله ونهاره وكواكبه ونجومه ، وظلاله ، فإنى لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبنى أحمدهم إن عرفتهم وفهمتهم .

دعينى أعيش مما قسم الله لى من الرزق ، ولقد رزقنى الجم الكثير الذى لا أطلب فوقه مزيدا ، ولا ابتغى به بدلا !

لقد عشت فى هذا الوادى خمسة عشرة عاما ما شكوت ولا تألمت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة أو ساخطة أو ناقمة ، فلم تطلبين إلى أن أترك ما لا يريبنى إلى ما يريبنى ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول ؟ وإن نفسى لتحدثنى بشر عظيم فى هذه السفرة التى تدعوننى إليها ، وما أزعم لنفسى علم ما فى الغيب ، ولكنى أشعر بخوف شديد لا أعرف له سببا ، وحسبى أن

أعلم أن لا سبيل لى إلى الوصول إلى ذلك العالم الثانى إلا إذا ركبت تلك المطية الوعرة التى يسمونها البحر حتى تسيل نفسى رهبة وجزعا .

فأطرقت هيلين صامتة ، ولم تستطع أن تقول شيئاً لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة عن بول فى تلك الأيام ، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التى تنتظرها هناك ، إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول .

ثم قالت بعد قليل : إننى لا أحب أن أشق عليك يا بنيتى فى شأن من شئونك الخاصة بك ، فاختارى لنفسك الحياة التى تحبينها وتؤثرينها ، غير أنى أضرع إليك فى أمر أرجو ألا يثقل عليك . قالت : وما هو ؟ قالت : أن تكتمى سرك الذى تعالجينه بين جنبيك ، فلا تبوحى به لأحد الناس كائنا من كان حتى لبول نفسه ، وأن تجعلى الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك فى كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذى نفسك بالأناة والرفق فى جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلى نصب عينيك دائما أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التى تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التى تبذل نفسها له أى أنه يحب المرأة الفاضلة أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالا غير جمال الأدب والعفة وإن زعم فى نفسه غير ذلك ، قالت : ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئا سواه .

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدعاة الماكرين الذين تستعين بهم الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا إنفاق مال ، والذين يكونون دائما فى حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ليرشدها ويباركها فلما رأوه قادماً إليهم ظنوه أنه إنما جاء لزيارتهم كعادته التى اعتادها ، فأحسنوا

استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذى كان يشغلها ، فكاشفته به فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء فى الجزيرة ويأمر فرجينى بالسفر إلى فرنسا ! وأنهما إن لم تفعلا فقد خالفتا إرادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فذعرت فرجينى ذعرا شديداً ، ولم تجد بدا من الخضوع والإذعان ، فانصرف الكاهن عائدا إلى قصر الحاكم ليرفع إليه ما تم من الأمر على يده .

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة التى تسكن ذلك الوادى القفر الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليه الوافدون من كل مكان ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد ، وابتاعت من الأنسجة والشفوف وصنوف الديباج والخز وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع افرادها أسمالهم القديمة البالية وقمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست فرجينى ثوباً حريريا أزرق مطرزا بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ولصق ثوبها بجسمها فمثله تمثيلا بديعا ، ووصفه وصفا دقيقا ، وبول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئا ، لأن أحدا منهم لم يجرؤ أن يكاشفه الأمر ، إلا أن يظن ذلك ظنا ، فعظم حزنه واكتئابه وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه مما به ، وكانت تمسك فى نفسها شيئا من العتب على صديقتها هيلين فى رضاها بسفر ابنتها وتضحيتها بابنها فى سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له : لم تعلل نفسك يابنى بالآمال الكاذبة والأمانى الضائعة ، ولم تتطلع إلى ما تقصر عنه يدك ويضيق به ذرعك ؟ ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذى كتمته عنك زمنا طويلا لتعلم من أنت ؟ ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك ، فاعلم أن أمك امرأة فلاحة وضيعة لا حسب لها ولا نسب ، وأن قدرا من الأقدار الجارية بين الناس

قد نزل بها فى صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أى أنك لاأب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرجينى ، فهى فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة مثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لأمر ما ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت فى طلبها لتعيش معها فى باريس متمتعة بثروتها الطائلة ، حتى إذا ذهبت لسبيلها ورثت هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع فى أن تصل بها يوما من الأيام إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأمانى ومتاعبها ، والله أولى بك وولى من كل مخلوق .

واعلم يا بنى أنى لم أقترف هذا الجرم الذى ذكرته لك ، وأنا أعلم أنى آثمة أو مذنبة ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لاحيلة لى ، ولا لأحد من الناس فى أمره ، فاغفر لى خطيئتى إن كنت ترى أنى مخطئة أو أنى الجالبة لك هذا الشقاء الذى تكابده فى حياتك .

ثم أسلمت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلا .

فحنى عليها بول وطوق عنقها بيديه وقال لها : لا تبك يا أماه ، فما أنت بائسة ، ولا شقية مادمت معك ، أما هفوتك التى تتحدثين عنها فما أحسب إلا أن الله سبحانه قد غفرها لك ، نعم سوف يغفرها لك لأنك قد كفرت عنها بدموعك ، وآلامك وشقائك الذى كابدته زمنا طويلا ، وكونى على ثقة من أنك أجل فى عينى وأكبر فى نفسى من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأننى لايعنينى أكان أبى معلوما أم مجهولا ، شريفا أم وضيعا ، لأنى ما فكرت يوما من الأيام أن أفخر به أو أعتمد فى حياتى عليه ، أما تلك التى حدثتنى عنها فسأحمل نفسى على نسيانها وسلوتها وأرجو أن يعيننى الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عنى وتجهمها لى ! ولا بد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على هذا السر الذى أطلعتنى عليه اليوم فازدرتنى

واحتقرتنى ونفضت يدها منى إلى الأبد ، والأمر لله وحده .

ثم نهض قائما وقد ظن أنه قد شفى مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله .

إلا أنه لم يبعد إلا قليلا حتى شعر بوخزة فى قلبه فلم يبل بها ثم تتابعت الوخزات فخيل إليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطير فى أجواز الفضاء فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : آه يافرجينى . . آه يافرجينى ، حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطىء البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهبت به نفسه مذاهب لايعلمها إلا الله وظل على حاله ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه وبدأ كوكب الليل يخطر فى جو السماء محفوظا بحاشيةمن سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ماتحته من صخور وهضاب ورمال وتلال فأضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة .

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه وبأخرى ترفع رأسه فانتبه فإذا فرجينى واقفه أمامه ودموعها تترقرق فى عينيها ، فذعر إذ رآها وظل ينظر إليها نظرا حائرا مضطربا ، فقالت له : مابقاؤك هنا وحدك فى هذا المكان يابول ؟ فقال لها : لقد حدثونى عنك أنك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وأنك ذاهبة لتفتشى لك عن أخ آخر غيرى يصلح لك وتصلحين له لأنك عرفت أنك فتاة شريفة ثرية لايجمل بك أن تتصلى بفتى وضيع مسكين مثلى ، فأحزننى ذلك حزنا عظيما ، وكنت أظن أننى أستطيع أن أحمل نفسى على الصبر عنك واليأس منك فعجزت ؛ فلم أر بدا من أن أروح عن نفسى ببضع قطرات من الدمع أذرفها فى هذا المكان الخالى .

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها وظل يقول لها : إلى أين تريدين

أن تذهبي يافرجيني ؟ وأي أرض تلك الأرض التي اخترتها وآثرتها على أرضك التي نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها ! ؟ وأي قلب ذلك القلب الذي رأيت أنه يحمل لك في سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك قلب أمك فاستبدلته به وسكنت إليه من دونه ؟ !

لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم ؟ !

وكيف تستطيع أن تهنأ بنومها حينما تمد يدها في ظلال الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ، وكيف تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينيها في الصباح فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب إذا جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها ، أو تصغى إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لايجلجل بينها ، ولا تنبعث رنته بين رناتها ! ؟ .

وكيف لي بتعزيتها وتعزية أمي عن همومهما وأحزانهما إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والأسحار ، والظباء السانحة ، والطيور البارحة ، فلا تسمعان ملبياً ولا مجيباً ولا تقبلان عزاء ولا سلوى ! ؟

وصمت هنيهة ثم قال وعيناه مخضلتان بالدموع : وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها لأجلس إليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟ ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعباً لاغباً ، فيبتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطىء البحر وقد بسط القمر أشعته على

أمواجه المنبسطة وصبغها بلونه الفضى الجميل فيجلس بجانبى على رملة من رماله الميثاء فيسمعنى تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التى تستغرق شعورى ووجدانى ، وتملك على مداركى وعواطفى ، ويخيل إلى حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى . وأنها نغمات الحور الحسان ، فى فراديس الجنان ! ؟ .

إننى لا أستطيع أن أعيش من بعدك يافرجينى ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبينى معك فى سفرك ، فأنت أجل من ذلك شأنا ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضت إلى أمى اليوم بسر حياتك وسر حياتى فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأننى فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أخا لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك ، وإنما أسألك أن تأذنى لى بركوب السفينة التى تركبينها لأكون ملاحاً من ملاحيها أو خادماً من خدمها ، فأراك على البعد فأجد فى رؤيتك راحتى وسلوتى ، وأعدك وعدا صادقا لا أغدر فيه ولا أحنث، أننى لا أجالسك ، ولا أدنو منك ولا أتصل بك بوجه من الوجوه إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإننى أبذل لك فى تلك الساعة جميع ما تملك يدى ، وما تملك يدى غير حياتى ، فابذلها لك طيب النفس عنها .

ما الذى طرأ عليك يافرجينى ؟ وما الذى نال من نفسك هذا النال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوائه جزع الأطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخاطرون بأنفسهم فى ركوبه ، فإذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثى بين أمواجه الثائرة تسعين يوما كاملة !

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوما واحداً ، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقا طويلا لايعلم مداه إلا الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الأرض أم سواها ! .

كنت تقولين إننى لاأجد لذة الحياة بعيدة عنك ، فها أنت تجدينها بعيدة عنى

جداً بين أقوام لاتعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب .

لقد شعرت بهذا الطارىء الجديد الذى طرأ على نفسك مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ، وعهدى بك أنك تضيقين ذرعا بالريح العاصفة إذا مدت يدها إليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تدور بقميصك حول جسمك ، ولا أدرى ماذا يكون شأنك غداً إذا فارقت هذه القفرة الموحشة إلى ذلك العالم المزدحم الهائل الذى يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغدا ؟

نعم إنك قد مللتينى يافرجينى ، ومللت الحياة بجانبى ، وأصبحت تشعرين بالحاجة إلى المال الذى لا أستطيع تقديمه لك ، وإلى العيش الرغد الذى تقصر يدى عنه ، فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكنى أسألك هل أنت على ثقة من أن المال هو السبيل الوحيد إلى السعادة التى تنشدينها ، وأنك تكونين فى ذلك الفضاء الواسع أسعد منك فى هذه الزاوية الضيقة ؟ إنى أخاف أن تكونى مخطئة فيما تظنين .

إنى لا آسى على نفسى يافرجينى ، فقد عرفت من أنا ، وعرفت من أنت وأصبحت لا أمل لى فى أن أعيش فى دائرة أوسع من الدائرة التى خلقت لها ولكننى أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد إليك ظفر من أظفاره الجارحة فأهلك على أثرك هما وكمداً .

فإما أن تعدلى عن السفر ، أو تأذنى لى بالسفر معك فإننى لا أستطيع أن أحول بين قلبى وبين القلق عليك مادمت غائبة عنى ، فإن أبيتهما فودعينى منذ الساعة الوداع الأخير ، فلا أمل لى فى الحياة من بعدك .

فلم تستقبله إلا بدموعها تنحدر على خديها تحدر حبات العقد وهى سلكه فانتثر ، وأنشأت تقول له :

إننى إنما أسافر من أجلك يابول لامن أجل نفسى ، لأننى أصبحت أشفق عليك الإشفاق كله من هذا الشقاء الذى تكابده فى سبيلى وسبيل هذه الأسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بينى وبين نفسى كلما رأيتك صاعدا شرفا ، أو عابرا نهرا ، أو سالكا وعرا ، أو حاملا ثقلا ؛ حذرا عليك أن تزل بك قدمك فى هوة من الهوى فتهلك فأهلك على أثرك ؛ فأنا إن فارقتك فإنما أفارقك بجسمى لابنفسى لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلام هذه الحياة ومتاعبها ؛ ولنستطيع أن نتمتع غدا فى هذا المعتزل الساكن الجميل متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت .

ورجائى إليك ألا تعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث المزعج الذى حدثتنيه الساعة ، فإنما نحن أخوان توأمان ، نشأنا معا ، ودرجنا معا ، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلنا من طريق واحدة ، هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لانعرف غيره ولا نفهم شيئا سواه ، وإنى قائلة لك كلمة ما كان يمنعنى منى أن أقولها لك قبل اليوم إلا الخجل والحياء : لو أن الدنيا عرضت على بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تشاكها أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتها غير آسفة ولا نادمة .

على أننى لاذنب لى فيما كان ، فقد أمرتنى أمى بالسفر ولا أستطيع أن أخالف لها أمرا ، وأبلغنى الكاهن أن تلك إرادة الله ومشيئته ، ولا قبل لى بالخروج عن إرادته ، وبعد : فهأنذا بين يديك فمرنى بما تشاء من أمرك أطعك وأذعن إليك ، غير مبالية بشىء بعدك ، فكل ما فى الحياة هين إلا أن أراك جازعا أو متألما .

فصاح بول صيحة الفرح والسرور وقال : سافرى يا فرجينى وسأسافر معك لأقيك بنفسى عاديات الدهر ، وطوارق الحدثان ، فإن حيينا حيينا معا ،

وإن هلكنا هلكنا معاً ، ثم دنا منها وضمها إلى صدره فشعر بالراحة التى يشعر بها الملقى عصاه بعد سفر طويل .

وكنا نفتش عنهما فى تلك الساعة أنا وهيلين ومرغريت ولا نعرف لهما مكاناً ، حتى سمعنا صيحة بول حين صاح فقصدنا إليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى إلينا ، ثم التفت إلى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم ، وقال لها بنغمة الهازىء الساخر : نعمت الأم أنت يا سيدتى ، ونعم ما تسدينه إلى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، إذ تريدين أن تفرقى بينهما وتمزقى شمل حياتهما ، وتعذبى قلبيهما الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ؛ وأن افتراقهما هو القضاء عليهما معاً .

لقد كنت يا سيدتى أزهد الناس فى المال وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وزهدا فيه ؛ فما الذى بدا لك فى شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك فى سبيله ؟ بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ؟ لأنك تريدين أن ترسلى ابنتك إلى تلك الأرض التى أهانتك واحتقرتك ؛ وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ، عقاباً لك على هفوة صغيرة ما كان مثلها جديراً بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ! ؟

نعم إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك فى ذلك منازع ولكننى أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها فصلتى بها عظيمة جدا لا تفترق عن صلتك إلا قليلا ، ولئن فرق بينى وبينها النسب فلقد جمعنا الحب والإخاء ، والود والوفاء والولادة فى مهد واحد ، والرضاع من ثدى واحد ، وبكائى عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها على إن نالنى وصب ومخاطرة كل منا بنفسه فى سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يد أجله أو يهلك دون ذلك ؛ واشتركنا معاً

فى الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والرى والظمأ ،وخوض الأنهار واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ومقاساة الأهوال ، فكيف لى بالصبر على فراقها ، أو لها بالصبر على فراق ؟

أبعدها عنى ولكنى سأتبعها ، وأترسم آثارها حيثما حلت من الأرض ، فإن أبيتم إلا أن تقفوا فى وجهى ، وتحولوا بينى وبين ركوب السفينة التى تحملها خضت البحر وراءها خوضاً ، لا أبالى بالمخاطر التى تعترضنى فى طريقى ، فإن قدرت لى النجاة فذاك ، أو لا ، فحسبى منها أنها تلقى على فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى نظرة من نظراتها ، وأن تذرف فى سبيلى دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء وصوتها آخر ما أسمع من الأصوات .

فاستعبرت هيلين وقالت : وماذا يكون حالنا من بعدك يا بول ؟

قال : وهل تظنون أنى أبقى من بعدها إنساناً تستطيعون أن تنتفعوا بى فى شأن من شئونكم ؟ أو أن يبقى لى من الفهم والإدراك ما يعيننى على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكرى وعقلى ، وتصورى وإدراكى ، وقوتى وعزيمتى وحياتى من مبدئها إلى منتهاها ، فإن أردتم أن تفقدونى إلى الأبد ، فأبعدوها عنى ، وودعونى الوداع الأخير قبل أن تودعوها .

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس أغرب صورة لبسها فى حياته وظل يهذى ويقول :

أيتها المرأة القاسية ! لا متعك الله برؤية ابنتك بعد اليوم ولا أعادها البحر إليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها إلا محمولة على الأيدى إلى مقرها الأخير ، ولكن ذكراها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتى الموت .

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشياً عليه ؛ فبكت هيلين ومرغريت

وبكيت أنا أيضاً على جفاف دمعتي ونضوب مادة حياتي لأنني أصبحت والداً لهذا الولد المسكين ؛ وأي والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهلة بين يديه ، وظللت أقول في نفسي : ويل لك أيتها القارة المشئومة ، لا خلاص منك ولا نجاة من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ، ولجأت إلى أقصى مكان يمكن أن تناله يد في العالم فما زلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتى أزعجتها من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدي عليها حياتها وتبددي ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التي ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فواشقاءك وواشقاء العالم بك !

وهنا تقدمت فرجيني تمشي بخطوات خفيفة مختلسة حتى جلست إلى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سماوي غريب لا يشبه نور القمر ولا نور الشمس ؛ ولا نور أي كوكب من كواكب الأرض والسماء بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبت على أذنه تقول له : سواء بقيت هنا يا بول أو رحلت فإني أقسم لك بدموعي ودموعك ، وآلامي وآلامك وبما قدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة ؛ أنني أكون لك ما حييت ولا أكون لأحد غيرك ، أقسم لك على ذلك بين يدي أمي وأمك ؛ وبين يدي هذا الشيخ الجليل ، فهم شهودي على ما أقول ، والله من ورائهم محيط .

فكأنما صبت على جسمه سجلا من الزلال البارد ، فانتفض ورأرأ بمقلتيه واستوى جالساً . وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هـــدوء وسكون فاحتضنته أمه إلى صدرها وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها؛فهمست هيلين في أذني : إن الموقف مؤلم جداً ولا صبر لي على مشاهدته ؛ فتقدمت نحو بول وجذبت يده وقلت له : هيا بنا يا ولدي إلى المنزل ، وقد انتصف الليل ، فمشى معي صامتا لا يقول شيئا ولا يلوي على شيء مما وراءه ؛ حتى بلغنا الطريقين

طريقي إلى كوخي ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له : هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ؟ وتذهب معي إلى كوخي لتبيت عندي ثم تعود في الصباح ؟ وكن على ثقة أن فرجيني لا تسافر بعد اليوم فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء وما أحسب إلا أن الأمر سينتهي على ما تحب وترضى ، فأسلم لي يده فقدته كما تقاد السائمة البلهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقا مروعا لا يذوق النوم إلا لماما حتى أصبح الصباح .

(١٩)

السفر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت له : ما بك يا سيدي ؟ قال : بي أن هذه الذكرى تهيجني ، وتبعث شجوني وأحزاني ولا أرى لك ياولدي فائدة من ذكرها ، فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض وأسود ، وأنتم معشر المتمدينين لا تحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى مالا تحب من لونيها ، قلت قل يا سيدي فنحن أبناء الدموع والآلام ، وسلائل البؤس والشقاء ؛ ومالنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب في حياتنا مذهبا غير مذهب آبائنا وأجدادنا ،وهل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه وينقيه من أدرانه وأقذاره ، غير تلك الألسن النارية التي تنبعث من صدور المتألمين ، وقلوب المحزونين ! على أننا لا بد لنا أن نفهم الحياة كما خلقت خيرها وشرها سعودها ونحوسها ، ولا بد لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذي يقابل وجه الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن في ضوء النهار سيدور الفلك دورته فتصبح في ظلمة الليل البهيم ، فرفع رأسه واستمر في حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض بول من مضجعه القلق المضطرب ، ومشى فى طريقه إلى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكانى ، فلم يزل سائراً حتى لمح الخادم « مارى » واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر، فذعر إذ رآها ، وناداها : أين فرجينى يا مارى ؟ فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه وعلم بما كان ، وهرع إلى شاطىء البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء شيئاً ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ، وأنها قد تجاوزت مدى البصر فلا سبيل إلى رؤيتها ، فكر راجعاً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاه بأسرع من لمح البصر على وعورته وتشعب مسالكه حتى بلغ قمته العليا وضرب الفضاء بنظره ، فلم ير فى عرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فعلم أنها السفينة التى تحمل فرجينى ، فاستمر نظره عالقا بها لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفا حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية فى مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شىء فلوى رأسه وانفجر باكيا ، وأنشأ يعج عجيجا محزنا يرن فى أجواف الغابات والأدغال وتردد صداه أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنت منه بحيث يسمع صوتى ، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعد لأى ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أماه إذ رأتاه ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة ابسها فى حياته ، وكأن بؤس الحياة جميعه قد تجمع واتخذ له مكانا بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتا لا يقول شيئا سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل ؛ ثم أخذ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : ولم لم ينبئونى بالساعة التى تسافر فيها لأقضى حق وداعها قبل أن تفارقنى ؟ إنهم لو فعلوا لما زدت شيئا على أن أدنو منها وأقبلها قبلة الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين يا فرجينى أنى أسأت إليك

يوما من الأيام أو بدرت منى بادرة آلمتك وجرحت نفسك ؛ فاغفرى لى ذنبى قبل أن تفارقينى ، وإن كنت عزمت على أن تجعلى فراقك هذا الفراق الأخير الذى لا لقاء بعده ، وأن تتخذى لك فى المكان الذى تذهبين إليه آخر غيرى ، تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحينى فأنت فى حل من ذلك ، وهنيئا لك ما تختارين ، وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراى سببا فى تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة ، ثم انصرف بعد ذلك لشأنى ، وقد هدأت نفسى وبرد غليلى ، ولكنهم لم يشفقوا على ، ولم يرحمونى ، لأنى ولد مسكين لا شأن لى فى الحياة ، بل لا مكان لى بين الأمكنة التى يجلس فيها ذوو الأصول والأنساب .

فدنت منه هيلين . وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده ، وقالت له : كن رجلا يا بنى كما كنت طوال أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التى تسافر فيها فرجينى ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ ، وفى هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه أعوانه وجنوده وقال لنا : إن الريح قد اعتدلت والسفينة على وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت فرجينى أن تسافر قبل أن تراك ؛ وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكى بكاء مرا ، فلم يجد الحاكم بدا من أن يأمر رجاله بحملها فاحتملوها إلى هودج كانوا قد أعدوه لها وساروا بها إلى شاطىء البحر ، وهى لا تنفك عن ذكرك والبكاء عليك حتى أقلعت السفينة .

فرفع بول إليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ؛ ثم قال لهما : فتشا لكما الآن عن ولد غيرى يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتمانى إلى الأبد ، ثم انتقل من مكانه مسرعا ، وخرج هائما على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه فرجينى فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها وأخذ يخاطب

الماشية التى يجدها فى طريقه كأنها تعقل منه ما يقول فيقول لها : مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ؛ من ذا الذى يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبتك ؟ ويقول للطيور التى تغرد فى أعشاشها : لاتنتظرى بعد اليوم من يحمل إليك الطعام فى حجره ، والماء فى يده فقد سافرت فرجينى ؛ ورأى العكاب « فيديل » سائراً فى طريقه يسوف التراب ويشتمه كأنما يفتش عن شىء ضاع منه ؛ فقال له : فتش ماشئت فإنك لن تراها بعد اليوم ؛ ورأى عنزة تتبعه حيث سار فالتفت إليها وقال لها : أنا سائر وحدى ؛ وليست فرجينى معى ، فانصرفى لشأنك .

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التى جلس عليها معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره فى الفضاء حتى استقر فى المكان الذى شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر فى الصباح فلم يزل نظره عالقاً به كأنما يظن أن السفينة لاتزال باقية فيه ؛ وظل على ذلك ساعات طوالا .

وكنا نتبعه على البعد من حيث لا يشعر بمكاننا ؛ ونترقب مذاهبه ومراميه ونرثى له مما به ؛ وقد أصبحنا ، ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا بعد لأى أن نعود به إلى الكوخ ، واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعاماً ولا شراباً أن يصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جلس على المائدة خيل إليه أن فرجينى لاتزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التى يعلم أنها تحبها ، ثم لايلبث أن يتنبه لنفسه فيطرق برأسه خجلا وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه .

وكان لايعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطرب به خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يازوج ابنتى أو ياصهرى العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً إلى نفسه سبيلا ، فأخذ يجمع آثار فرجينى من جميع أماكنها

ومظانها ، كجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها فى أيام الأعياد ، وكأس الشاى التى كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التى كانت تحفظها فى صندوقها ، ومشط الآبنوس الذى كانت تمشط به غدائرها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنية ووضعها فى مكان واحد سماه « متحف فرجينى » فكان يختلف إليها من حين إلى حين ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبتها .

وما هى إلا أيام قلائل حتى عادت إليه تلك الروح العظيمة الشريفة التى كانت تملأ مابين جنبيه : روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة ، فعز عليه أن يرى أميه ، وهما ضعيفتان منهوكتان تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به فعاد له جده ونشاطه وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التى يلجأ إليها من همومه وأحزانه ويعتصم بها من وساوسه وبلابله .

وكان يأنس بى فى ذلك الحين أنسا عظيما ويقضى معى جميع أوقات فراغه لأنى كنت أعزيه وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أماه ، بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ، فاقترح على يوما من الأيام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر فى نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة فرجينى ، فأعجبنى مقترحه هذا وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك ياولدى أنى مارأيت فى حياتى ذهنا أحد ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم من ذهن هذا الغلام وفطرته .

فقد استطاع بعد بضعة شهور لاتزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلا طويلا من كتاب أدبى بسيط ، وأن يكتب مسودة لفرجينى .

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إلى أن أعلمه فن الفلاحة ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة إرضاء لفرجيني ، وعلم تقويم البلدان ليعرف النقطة التى تحلها فرجينى من سطح الأرض ؛ وعلم التاريخ ليعرف شيئاً من شئون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجينى ، فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلى ، ولم يلبث إلا قليلا حتى استطاع أن يستقل بنفسه فى دراسة تلك العلوم وغيرها مما بدا له أن يعرفه ويزاوله . فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والإدراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتى فى مثل سنه ، وفى مثل الزمان الذى قضاه فى الدراسة ؛ وأصبح ينظر إلى الحياة وشئونها نظرة الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف الكثير من بواطنها وخفاياها ؛ وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر والصلاح والفساد والإساءة والإحسان ، فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ؛ ولا سبيل من السبل ؛ وكان السبب فى ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذه آلة يتوصل بها إلى عرض من أعراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ؛ ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين يعتبرون العلم حلية من الحلى يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة ؛ وجواهرهم الثمينة ؛ وقصورهم الشامخة ؛ ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ويراها كما خلقها الله لا كما عبثت بها يد الإنسان ، فكان له ما أراد .

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجى المتوحش إنساناً كاملا مستنير الذهن مستوى العقل فياض الشعور والإحساس ؛ واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماءه ، واستطاعت شعلته الملتهبة أن تطهر بنارها تلك النفس الصدئة المتبلدة ، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فإذا هى سبيكة صافية من الذهب تتوهج توهجاً وتلتمع التماعا ، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل

التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية والمصارع الإنسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة برذائل الملوك والأمراء وفظائع الأشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار ، كما مل تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع ، والجبال والتلال والأنهار والنهيرات التي لا نهاية لها ، ولا فائدة منها ، وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً ، قصصاً وروايات ، وأمالي ومحاضرات ؛ لأنه خلاصة العقل البشري وزبدته الأخيرة التي تمخض عنها ، ولأنه المرآة الصافية التي تتراءى فيها صورة الحياة على حقيقتها ومشاعر النفوس بكل ماتشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس وارتياح وانقباض ، وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر « هومير » ومن النثر قصة « تلماك » لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها ، وترسم منازل الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فإذا جلس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوت وأوخاريس خيل إليه أن فرجيني مثال الأولى في إبائها وعزتها ، ومثال الأخرى في رقتها وعذوبتها ، فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقي كتابه جانباً ويسبح في فضاء الخيال سبحاً طويلا .

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التي وضعها واضعوها لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس وفضول أطماعهم ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم ، وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة القذرة من الرذائل والمثالب . وكان يقول في نفسه كلما قرأ شيئاً منها : ليت شعري هل تستطيع فرجيني أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث الذي تتحدث عنه هذه الروايات ؟ ! إنني أخاف عليها خوفاً شديداً .

(٢٠)
أوروبا

مرت ثلاثة أعوام ، ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشاً سعيداً يحسدها عليه الحاسدون ، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم :

والدتى :

كتبت إليك قبل اليوم كتباً كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذى كنت أرسل إليك منه .

لا أحدثك كثيرا عن سفرى وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسى عظيم ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً وتألمت كثيراً ، حتى رحمنى من كان معى ، وكان يخيل إلى والسفينة تمخر بى فى عباب البحر أننى إنما أفارقك فراقاً لا رجعة لى منه أبد الدهر ؛ ولقد شعرت بوحشة عظمى فى الساعة التى دخلت فيها قصر عمتى ، فقد خيل إلى أنه على جماله ورونقه، وحسن نظامه وبديع هندامه ، وكثرة الذاهبين والآتين فى أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نأمة فيها ، ولا حركة ، ولقد سألتنى عمتى حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول فى أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمت فى صغرى؟ فلما عرفت أننى لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة قالت : إنك لا تزيدين فى شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدى ، ولم تنشىء خيراً من

منشئهم ، ثم أمرت بإرسالى إلى دير فى ضواحى باريس أتعلم فيه أنواع العلوم فعلمونى القراءة والكتابة ، فسرنى منهما أنى أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك ، ثم أخذوا يعلمونى التاريخ وتقويم البلدان والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشىء من هذا كله ، لأنى شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لى فيه ، فوصفنى أساتذتى ورفيقاتى بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أبل بذلك ، لأنى ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة فى عيونهم ، على أن عمتى تعنى بى عناية كبرى ، وتبذل فى سبيل راحتى ورفاهيتى وتيسير جميع مرافقى وحاجاتى مالا كثيراً ، وقد خصصت لخدمتى فتاتين متأنقتين من وصائفها ، لا عمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما فى أحاديث تافهة مرذولة لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح أو تلعبان فى ملعب ، ويخيل إلى أن عمتى قد أوعزت إليهما ألا تدعوانى بلقبى الذى أحبه وأوثره ، فهما تسميانى دائماً « الـكونتة فرجينى » بدلا من « فرجينى دى لاتور » أى أنهما تأبى على أن أحمل اسم والدى الذى أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن أنسى ما كابده فى حياته من شقاء وألم فى سبيلك وسبيل سعادتك حتى سقط فى مصرعه المحزن المؤلم فى صحارى مدغشقر غريباً وحيداً لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكى عليه باك ، ويخيل إلى فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا لى بالتحدث عنك ، أو عن حياتى الماضية معك . فإذا ذكرتك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التى قضيت فيها زهرة حياتى نظرتا إلى نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لى : إنك باريسية يا سيدتى فلا يجمل بك أن تتحدثى أمثال هـذه الأحاديث عن تلك الأصقاع المتوحشة ، وأغرب من هذا أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها إياى بجميع صنوف الرعاية والإكرام لا تسمح ببقاء درهم واحد فى يدى ، كأنها تخشى أن أبعث إليك بشىء من المال ، ولا أدرى ماذا يعنيها من

ذلك ، على أننى أعترف لها بأنها قد صدقت فى فراستها ، فإنى ما كنت أتأخر أن أبعث إليك بجميع ما يصل إلى يدى ، لو وصل إلى يدى شىء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا فقيرة معوزة لا أملك شيئاً ، بل أنا الآن أفقر منى فى كل عهد مضى لأنى عاجزة عن أن أمد يدى بالمعونة إلى من تهمنى معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئاً من المال تستعينين به على عيشك فى تلك البلاد المقفرة ؟ فكان جوابها : إن الحياة فى تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ، وأن المال يفسدها ويربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، إلى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكننى فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ؛ وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا لولا أنك أوصيتنى أن أصدقك الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر . فليتك تحضرين إلى يا والدتى لتعيشى بجانبى وتحملى عنى بعض ما أكابده من الوحشة والكآبة فى هذه البلاد ؛ فإن حياتى على رغدها ورخائها وتوفر أسباب النعمة فيها ؛ شقية جداً ، لا أجد فيها أنساً ، ولا اغتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشىء من وحشتى وضجرى لأننى لا أجد حولى تلك القلوب الطيبة الرحيمة التى ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعورى بشعورها ، فأنا أعيش من بعدها فى ظلمة حالكة لا يلمع فيها نجم ، ولا يضىء كوكب ، ولولا أنى أعلم أن بقائى هنا إنما هو تنفيذ لإرادتك ، ونزول على حكمك ما أطقت البقاء ساعة واحدة .

ولقد كنت أجهل فى مبدأ أمرى أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم من جمال الصور ونضرة الأجسام حتى تكشف لى أمرهم ، فرأيت أنى أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين

خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ، فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، فى جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون فى ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم يختلف عن نظام البشر جميعاً فى كل مكان وزمان .

ولقد لبثت زمناً طويلا أكتب إليك الكتاب بعد الكتاب ، ثم أنتظر رده فلا يرد إلى شىء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب ، وأذهب فى تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التى كنت أعتمد عليها فى حمل كتبى إلى البريد كانت تحملها إلى عمتى فتقرؤها وتمزقها ، فأحزننى ذلك حزناً عظيما ، ثم أفضيت بالأمر إلى صديقة لى من طالبات المدرسة كنت أثق بها كثيراً فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب إليك ، وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا فابعثى إلى برسائلك من طريقها .

وبعد : فليس فى هذه الحياة التى أحياها هنا ما يروقنى ويعجبنى فإننى لا أزال حتى الساعة أعيش فى قفرة موحشة لا يؤنسنى فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتى لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتى يزعم أنه يحبنى ويعطف على وأحسب أنه كاذب فيما يقول ، لأنى لا أشعر بحبه ، ولا العطف عليه . فأنا أقضى جميع أوقاتى مكبة على منسجى ، أروح عن نفسى بالنسج والتطريز ، وستجدين فى الحقيبة المرسلة إليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والأخمرة هى قسمة بينك وبين أمى مرغريت وقلنسوة لدومينج وثوباً لمارى ، وكنت أود أن أرسل إليها كثيراً من أثوابى الخليعة لولا أن الوصائف هنا لا يسمحن لى بذلك ، لأنهن يتقاسمن ملابسى ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها .

تحيتى إلى أمى مرغريت ، ووالدى دومينج ، ومربيتى مارى ، وأستاذى الشيخ الجليل ، وكلبى الأمين « فيديل » وإلى جميع شويهاتى وأعنزى وطيورى

وعصافيرى ، واعلمى يا والدتى أننى فى أشد الحاجة إلى بقائى بجانبك ، وإلى الرجوع إلى تلك الحياة السعيدة التى فقدتها ولاأزال أبكى عليها ، وأننى أعيش هنـا كما تعيش النبتة الغريبة فى أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها . فهى صائرة إلى الذبول والاضمحلال ، وأرجو أن أراكم جميعاً عندى قريباً أو أرانى عندكم والسلام ؟ « فرجينى دى لانور »

وكانوا جميعاً يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ويذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب بول أنها لم تذكر اسمه فى كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها كما أرسلتها لكل من فى الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائماً الحديث عن أهم الأشياء وأجلها شأناً عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة فى زاوية الكتاب فقرأتها فإذا هى تقول :

« بلغى أخى بول تحيتى وشوقى ، وقولى له إننى قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التى يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالا كثيرا معنونة بأسمائها ، فإننى أرغب إليه أن يعنى عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلتى الجوز السماتين باسمى واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ، لأنها على جمالها ورقتها حيية خجولة لاتألف إلا المخابىء والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التى يسمونها « زهرة الحداد » فى ظل الصخرة التى جلسنا عليها معا « ليلة الوداع » وقد سموها بهذا الاسم لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة تدور بها دائرة سوداء كما يدور الخمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة فى موقف الشكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ويحييها عنى كما يحيى جميع الأمكنة والبقاع التى يعلم أنى أحبها . وبلغيه أيضا أنى لا أزال أذكره وأننى لن أنسى قط أياديه البيضاء التى أسداها إلى فيما مضى من أيام حياتى ، وأننى دائما عند ظنه بى » .

فاستطير بول فرحا وسرورا ، وتناول الكيس الصغير الذى أرسلته إليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب على شكل زهرتين متعانقتين فسر بذلك سرورا عظيما وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه .

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتابا قالت لها : إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها فى وحشة مخيفة لا يهونها عليهم شىء من الأشياء ، وإن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها متقطعين عن رؤيتها ، وإنها لا ترى بأسا من رجوعها إلى جزيرة متى أرادت ذلك .

وكتب إليها بول يشكر لها هديتها ، ويقول : إنه قد أصبح الآن عالما عن علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور فى أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التى رسمها ذلك الفن ؛ وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة وتنشر عليها ظلالها وأفياءها . ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها التى قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاة لم تترك دمعة فى محاجرها عندما قرأتها إلا استذرفتها .

ثم أخذ بعد ذلك يهيىء الأحواض لغرس تلك البذور ويعد لها عدتها من ظل وماء فأنفق فى ذلك وقت طويل ثم غرسها ، فلم تلبث إلا قليلا حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميتة لا حياة فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا فى نظام واحد ، وحياة واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم وزاده حزنا وألما ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التى تفترق ما تفترق ثم تتفق على أن فرجينى موشكة أن تتزوج فلم يحفل بذلك فى مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ، لأن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها

على النفس ، وبدأ يصدق مايسمعه ، لا لأنه يعتقد صدق القائلين بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائما ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات ، وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول في نفسه ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها وحول حياتها الطيبة الطاهرة إلى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يدى ألا تستبدل بي أخاً سواى ، والنفس الإنسانية كما يقول « روسو » مرآة تتراءى فيه مختلفات الصور والألوان ، والمرء كما يقول « موبسان » ابن البيئة التي يعيش فيها .

فكأن استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله ، كان شقاء عليه وويلا له ولعله لو بقي قدماً جاهلا كما كان لا يجول نظره في أفق أوسع من الأفق الذي يعيش فيه ؛ كان من أبعد الأشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجيني غادرة خائنة .

وكان إذا حزبه الأمر ، ولجت به الوساوس والهموم ، فزع إلى وألقى بين يدى أثقاله وأعباءه فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والأيام وصروفها ومايتداوله الناس في دنياهم من نعيم وبؤس وجدة وفقر وراحة وتعب وصحة ومرض ، ورجاء يشرق في ليل اليأس حتى يحيله نهارا ساطعا ويأس يغشى نهار الرجاء حتى يبدله ظلاما قاتما ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلج عليه ، فيجد في أحاديثي هذه ملهاة يتلهى بها حينا عن شواغله وهمومه .

(٢١)

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ : هل لك ياسيدىّ أن تحدثنى قليلا عن نفسك ؟ فإنى أشعر منذ جلست إليك أنى أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ليست مثل هذه الأرض مما تنبت مثله فى وفور عقله ! وسعة مداركه واكتماله أهبته ، وكثرة تجاربه واختباراته ، ولابد أن حادثا من حوادث الدهر العظام قد قذف به إلى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون .

فرفع رأسه إلى وقال : سأحدثك عن نفسى قليلا يابنى ، فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليسا يستطيع أن يسكب نفسه فى نفسه ، ويفضى إليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل فى جلسته وأنشأ يقول :

إنى أسكن يابنى على بعد فرسخ ونصف من هذا المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذى يسمونه « الجبل الطويل » وهنا أقضى أيام حياتى وحيدا منفردا ، لا زوج لى ولا ولد ولا أنيس ولا عشير ، وعندى أن سعادة المرء لاتعدو إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوج صالحة تحبه ويحبها وتخلص إليه ويخلص إليها ، فإن أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشيرتها ، وقد قضى الله أن أحرم الأولى فلم يبق لى بد من اختيار الثانية .

والعزلة هى المرفأ الأمين الذى تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج وتصطلح عليها هوج الرياح ، وهى الواحة الخصبة التى يفىء إليها السفر بين الأين والكلال ، فيجدون فى ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهى المنزلة الأولى التى ينزلها المرء فى طريقه من الدنيا إلى الآخرة ،

ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكمها الظالمين ، وملوكها المستبدين كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ وكما هو شأن الهنود والصينيين والإيطاليين والشعوب الشرقية اليوم .

وقد يكون ذلك أحياناً في الأمم المتمدينة المتحضرة ، فإن للمدنية شقاء كشقاء الهمجية لا يختلف عنه في لونه وصبغته ، فإن وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشيع والآراء والأفكار يحاول كل منها أن يجذبه إليه ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ، ولا تهبط في مهبط ، متعبة عقلية لا قبل له باحتمالها ، ولو أنه كان أسيراً في قوم متوحشين ، وقد شده آسروه إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه جذباً شديداً يمزقونه إرباً إرباً ، لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسي ، وسكونه الفكري كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعثور بها إلا في مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصغى في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكد الطويل كالسيل المنحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل في طريقة الأقذاء والأكدار ، فإذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة يتلألأ في صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء وبهجة الملأ الأعلى .

ولقد كنت أحد أولئك الفارين بأنفسهم من لجب المدنية وضوضائها . وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذى بنيته بيدى على ضفة ذلك الجدول الصغير ، ولقد رزقنى الله أرضاً خصبة جيدة التربة ، أقضى جميع أوقاتى فى حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها لامعين لى إلا قوتى ، ولا أنيس لى غير وحدتى ، فإن شعرت بشىء من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التى اخترتها لصحبتى حين نفضت يدى من جميع الأصدقاء والأصحاب لأحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادىء القويمة ، والعقائد الثابتة ، والآراء الناضجة الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوفوا رغبة الناس فى أهوائهم ومطامعهم ولاليعجبوهم من ذكائهم وفطنتهم وغرابة ابتداعهم ، بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة فيراها الناس كما هى غير مشوهة ولامزخرفة ، لايبتغون على ذلك أجرا سوى أن يروا الإنسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها ، إلى ذروة سعادتها وهناءتها .

فإذاجلست لقراءتها رأيت فى مرآتها ذلك العالم الذى فارقته واجتويته، ورأيت شقاءه الذى يكابده ، وآلامه التى يعالجها دون أن نحس أنه يشقى أو يتألم فأشعر بما شعر به ذلك الذى نجا من سفينة موشكة على الغرق إلى صخرة عالية فى وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة .

ولقد أصبحت بعد أن فارقت الناس وصرت بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثى لبؤسهم وشقائهم ، وأضمر لهم من العطف والحب مالم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذى يعالجونه وبؤسهم الذى يكابدونه على كثرة ماقاسيت منهم فى مقامى بينهم من الهموم والآلام ، والمهانات ، ولم

يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم إلى الحياة الطبية السعيدة حياة الطبيعة والفطرة ، وأنعي عليهم ذلك التكلف والتعمل فى مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم وعقائدهم ومذاهبهم وآرائهم وأفكارهم وصلاتهم وعلائقهم وأقول لهم : أيها الناس عودوا إلى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم ، وأرأف بكم من كل شيء فى هذا العالم ، واعلموا أن جميع ما تكابدون من الآلام والأسقام فى حياتكم ، إنما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها وكفركم بسننها وشرائعها فاشربوا قراح الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط المآكل إن أكلتم واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، ووحدوا نظركم إلى الأشياء والشئون بقدر ما تستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التى تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم ، واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة والضوضاء فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها واقنعوا منها بالكفاف الذى يمسك الحوباء ، ويعين على المسير ، فإنما أنتم مارون لا مقيمون ومجتازون لا قاطنون ، ولا يوجد بؤس فى العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفىء ببردها غلته ، ويجد فى ظلالها راحته ، ساعة من نهار ، ثم يمضى لسبيله ، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد فهلك دون مرامه ظمأ وعياً ، ولا يقذفن فى روعكم أنى أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ، فالزهد عندى سخافة كالجشع كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة إليه ، وكلاهما خروج عن القصد وضلال عن السبيل ، وإنما أريد أن تترفقوا فى الطلب ، ولا تمعنوا فيه إمعاناً فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوى على الضعيف ، والجشع المتكالب على القنوع المعتدل ، يسلبه ما بيده ويحرمه القليل التافه الذى يتبلغ به باسم جهاد الحياة ، وتنازع البقاء فكان جزائى عندهم على هدايتهم وإرشادهم ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء

الذى يعالجونه أن سخروا بى واحتقرونى ، وسمونى مجنوناً ، ولم يقنعوا فى أمرى بتركى وشأنى كما يترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذونى عدواً لهم يحاربوننى كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لى عندهم إلا أنى أسمى المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأسمى الجاه مؤونة ويسمونه متعة ، وأسمى اللجاج فى الطلب والتهالك فيه جنوناً وخبلا ، ويسمونه حكمة وحزماً ، ثم لا يلبثون إلا قليلا حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم وخيبة آمالهم . ويسقطوا فى الهوة التى كنت أنذر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك فى نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمة على أنفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون ، بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق والدنيا والآخرة ، ويثيرون الثائرة على الشرائع الأرضية والسماوية والنظم الطبيعية والوضعية ، وعلى أنا أيضاً ، لأنى لم أهو معهم فى الهوة التى هووا فيها كأنى أنا الذى أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل ، وما أشقاهم إلا الطمع لو كانوا يعلمون .

وأما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ، وأرحت نفسى إلى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة الممضة : مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم فى تلك الحفائر الجوفاء التى حفرتها فى طريقهم أيدى المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذنى ذلك الدوى الهائل الذى كان يزعجنى ويقلقنى ، وأصبحت فى وحدتى هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور ساطعاً غير منغص . والجمال خالصاً غير مشوه أتبسط فى أنحاء نفسى حيث أشاء ومتى أشاء وأناجى الله والطبيعة وجهاً لوجه لا يحول بينى وبينهما حائل ؛ وأفكر على الطريقة التى أريدها لا التى يريدها الناس ؛ وأنسج ثوبى على مقدار جسمى ، لا على مقدار جسوم الآخرين وأشرف من قمة وحدتى وعزلتى على ذلك العالم الذى فارقته واجتويته فأعجب لتلك الهموم والآلام التى يعالجها لغير علة ولا سبب ولتلك المعركة الهائلة التى يشنها بعض أفراده على

بعض على غير طائل ، سوى أن يهلك أحدهم فى سبيل الآخر ، ثم يهلك الآخر فى سبيل آخر ، وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم إلى مالا نهاية لها ، كتقطع الأمواج التى تتواثب على الصخور المعترضة فى مجراها فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى ثم تتلاشى كأن لم تكن ، فأحمد الله على نجاتى منهم وخلاصى من أيديهم، وعلى أننى استطعت أن أعيش على حساب نفسى ، لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول لقمتى مغموسة بدمى لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتى على البائسين والمساكين ، والساقطين فى هوى اليأس ، المنقطعين عن قافلة الحياة ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلا ومشرباً ، وملبساً ومسكناً ، وضعت لى فى كفة ، ثم وضعت لى فى الكفة الأخرى لذتى فى هداية تائه ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ، لرجحت عليها .

وهكذا أقضى حياتى فى تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدى ذلك الخضم العظيم ، متمتعا بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوقى تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامى يعج بأمواجه وأثباجه والأرض بين يدى تختال فى أثوابها وأبرادها ، والأصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعنى مالم أسمعه يوماً من أيام حياتى فى أكبر معهد غنائى ، من أكبر فرقة موسيقية .

فإذا جلست أمام كوخى على تلك الصخرة العالية التى اعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفاً بعضه وراء بعض كأنه السطور فى الكتاب، رءوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجرى فى خلال الخمائل الملتفة جريان القمر السارى فى أعماق السحب المتكاثفة فلا يرى منه الرائى إلا بوارق خاطفة تلمع من حين إلى حين،

وألقى نظرى تارة على الروض الجميل الذى غرسته بيدى فأرى صنوف أشجاره وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه وأراه فى سكون الريح وهدوئها معبداً قد لبس الجلال والوقار ، وانتثرت فى جنباته أشخاص الراكعين والساجدين . وفى هبوبها وانبعاثها مرقصاً تترنح فيه القدود وتعتنق القامات ، وتقابل الحركات والسكنات ، ثم أنظر إلى السيل المتدفق من أعالى الجبال فأرى تلك المعركة الهائلة التى تجرى بينه وبين الصخور الناتئة فى طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه فتتطاير أجزاؤه فى جو السماء كأنها شظايا ألواح البللور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخراً أكثر مما نال أولا ، وهى جامدة فى مكانها ، لا تحرك ساكناً ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأن الطيش والنزق بين يدى الرزانة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلا فى أعماق الخمائل والأدغال كأنما يتوارى حياء وخجلا ، ثم لايلبث أن يستحيل بعد ذلك إلى مرآة صافية تتراءى فيها صور النخيل والأشجار وظلال القمم والهضاب كأنما قد خطها رسام ماهر بريشة رقيقة فى صحيفة ناصعة . وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر مناظر الطيور الغريبة حين تفد فى أواخر فصل الصيف أسراباً من أقاصى البلاد مجتازة ذلك الخضم العظيم إلى حيث تلتمس رزقها الذى أعوزها فى أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار ، وضفاف الأنهار ، وتحلق فوق الجداول والغدر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة برداً مفوفاً ترف حواشيه وأهدابه . وترجف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها فى بعض ، فأجد من الأنس بها والغبطة بعشرتها ما يملأ قلبى بهجة وحبوراً ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره .

وقد أجلس أحياناً على شاطىء البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء ، وهى

تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدورها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة جدول واسع ، أو نهر متدفق . فيكون لها في غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها ، وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترقبها الغريب في طلب عيشها وتحصيل رزقها ، منظر بديع رائق ، لا تكدره حبائل منظومة ، ولا تزعجه قذائف منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يا بنى أنى وقد عاشرت الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقردة الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا أهيجت ، ولا تطمع فى أكثر من كفاف عيشها ، وعلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرى منها وأشرس وأنه مخدوع أو خادع فى تفضيل نفسه عليها .

ولم يزل هذا شأنى حتى نزلت بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامى معها غرة أيام حياتى وكوكب سمائها الساطع ، فوا أسفى عليها ، ووا لهفى بالحياة من بعدها !

(٢٢)

الحديث

وحسبك الآن يا بنى ما عرفت من شأنى ، فلأعد بك إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إلى كثيراً بعد سفر فرجينى ليطلب عندى عزاءه وسلواه وراحة نفسه من بلابلها ووساوسها .

فوفد إلىّ ذات يوم ، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة كانت قد غرستها فرجينى فيما غرست من الأشجار الكثيرة التى كانت تحمل معها بذورها حيثما ذهبت وأينما حلت ، قائلة : لعل الله يمنحها النماء والنضرة فيهتدى بها ضال ، أو

يفىء إليها حائر أو يتعلل بها ظامىء ، فجلس بجانبى وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنا حزين جداً يا والدى ، ويخيل إلى أن فرجينى قد نسيتنى وأن يدى قد قد أصبحت صفراً منها إلى الأبد ، فلقد مر على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلى فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهانى عندها ، ولقد حدثتنى نفسى اليوم أن أسافر إلى فرنسا أسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة فرجينى فلا ترى مانعاً — وقد جمعت فى يدى بين حاشيتى المجد والشرف — أن تزوجنى من حفيدتها .

قلت : ألم تحدثنى يا ولدى قبل اليوم أنك لا تتصل بنسب شريف أو أنك لا تعرف لك أباً ؟

قال : وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ؟ إننى لا أريد ان أتقدم إلى الملك بحسبى ونسبى ، بل بكفايتى وجدارتى ، وخدمتى التى أقدمها لوطنى ؟ وهل يوجد فى الناس من يأخذنى بذنب لست صاحبه ولا صاحب الرأى فيه بل لم أكن حاضره ولا شاهده لأنه وقع قبل وجودى فى هذا العالم ، على أننى لا أعد ماكان ذنباً ، لأن والدتى أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب .

قلت : إنك تحدثنى بلسان الحقيقة ؛ أما لسان الاصطلاح فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكانا مطمئناً بين الطبقات العالية الرفيعة التى يسمونها طبقات الأشراف والنبلاء .

قال : إنك قد قلت لى قبل اليوم كما قرأت فى كثير من الكتب ، أن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين الذين لا يمتون إلى الناس

بحسب أو نسب ، ولا شأن لهم فى حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدمات جليلة كانت هى وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة المجد التى بلغوها ، فهل كنت تخدعنى فيما قلت لى وكان يخدعنى أولئك الكاتبون ؟

قلت : لم أخدعك يا بنى ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضى ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون لا يؤثرون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يقربون ولا يدنون إلا من أمسك بطرف من سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء أو قائد من القواد أو نبيل من النبلاء ، وهؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ووزراؤهم ، وقوادهم ، وولاتهم وعمالهم وجلساؤهم وسمارهم ومواضع ثقتهم ، وأمناء أسرارهم ، أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يصل أحدا من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا وقبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها وحكماؤها وعلماؤها ، ورجال الفنون فيها ، أضعف الناس ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة فى ترتيب درجات الإنسانية ، لأنهم قد حرموا الاتصال بتلك الشمس المشرقة التى تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل .

قال : وماذا على إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء ، وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التى أريدها ؟

قلت : إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده إلا إذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أى أن تجعل نفسك جسراً يمشى عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأنفتها .

قال : يخيل إلى أنى إذا قمت بواجبى لأمتى ووطنى وأديت للانسانية العامة خدمة عظمى يرن صداها فى جميع الآفاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف

المحسنين من يتولانى بحمايته ورعايته ، ويأخذ بيدى إلى المنزلة التى أستحقها .

قلت : استمع منى كلمة أقولها لك يا بنى : لقد كان اليونان والرومان والمصريون حتى فى أدوار سقوطهم وانحطاطهم يبجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب والمزايا أعظم تقديس ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويبسطون عليهم جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئاً فى كتب التاريخ . أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصورا بين الجاه والمال فلا يظفر به إلا ذو منصب عال أو مال كثير ، وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا، كالشعراء والكتاب والموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزينوها بالتحف والذخائر وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلهم وخضوعهم بين أيديهم كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومجانهم . وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة أو أن يكون منتهى آمالك فى حياتك أن تصبح خليعاً ماجناً .

قال : إن فاتنى أن أعيش فى كنف رجل شريف فلن يفوتنى أن أعيش فى كنف حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات أخدمها وأخلص لها فأنال الحظوة عندها .

قلت : إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ، فالهيئات كالأفراد لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيراً ما تكون مصلحتها فى جانب ، والحق فى جانب آخر ، بل ذلك هو الأعم الأغلب فى أمرها ، فإما جاريتها فهلكت أو نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها .

قال : الموت أهون على أن أخطو خطوة واحدة لا يرضى بها ضميرى .

قلت : إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعا دائماً لا لقاء بينكما من بعده.

قال : واشقاءاه ، لقد أخذت على جميع السبل ! وسدت جميع المسالك ،

ويخيل إلى أنى سأقضى بقية أيام حياتى فى ظلمة داجية لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الإحسان ، وأن قد حيل بينى وبين فرجينى إلى الأبد .

قلت : إنك واهم يا بنى ، فما أنت بشقى كما تظن ، وما الشقاء إلا تلك العظمة التى تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك وصفاء سريرتك فى سعادة لا يتمتع بها متمتع على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التى لا سبيل لك إلى بلوغها إلا إذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة والظلم والإثم ، ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس والدنايا بالدنايا ، والأكاذيب بالأكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً وموجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ، وكنت فى آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوأة لا يوجد فى الناس من لا يسترها ، وما أحسب فرجينى ترضى لك ولا لنفسها ، أن تكون وسيلتك إليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهى الفتاة الشريفة الفاضلة التى لها طهارة الملك فى سمائه وصفاء الكوكب فى أفقه . واعلم يا بنى أن الفقير يعيش من دنياه فى أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه إذا وجد يوماً من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً . وأن الغنى يعيش منها فى روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه إذا عثر فى طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملا كل شىء ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شىء .

قال : إنما أريد المجد الأدبى لا المجد المالى .

قلت : نعم إن المجد الأدبى مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك إلى الغاية التى تريدها . إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التى تطلع فى سمائه الداجية المدلهمة فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التى تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العليا التى يهتدى بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج السارى أى شعب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون ، الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ويملأون فضاءها رجاء وأملا ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لأنهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة وأكثر عدة وعددا ، وهم دائماً هدف لغضب الملوك لأنهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضب النبلاء ، لأنهم يحتقرون نبلهم ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضب الكهنة لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم وغضب العامة لأنهم يطاردون أهواءهم وشهواتهم ، أى أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهى حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل أو صلب أو إلقاء فى السجن ، أو تشريد فى الأرض ، ولا ذنب لهم إلا أن أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بإزهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع فى أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال .

قال : لولا فرجينى ما أسفت على شىء فى الحياة ، ولا بكيت على فائت منها .

قلت : إن فرجينى باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث

تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ماقطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع في عهد قريب فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعد نفسك لحياة مستقبلة سعيدة يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته إليك ، فأضاءت حول ثغره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد وقال : أأنت على ثقة مما تقول ؟ قلت : نعم ، فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحى السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول فى أكناف « حديقة فرجينى » يشذب أشجارها ويشق أنهارها ، ويحول مياهها ، ويسقى ماذبل من أغراسها ، وقد لبس برداً قشيباً من الجد والنشاط لاعهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة .

(٢٣)

السفينة

وفى عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى بول العلم الأبيض يخفق على قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينة التى تحمل فرجينى ، فانحدر إلى شاطىء البحر فيمن انحدر إليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليـــل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ؛ وأنه لم يعد حتى الساعة . فجلس فى انتظاره حتى عاد وحده فأخبر أن السفينة اسمها « سان جيران » وربانها اسمه المسيو « أوبن » وأن الريح لاتساعدها على دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنها الوصول إليه إلا الغد وكان يحمل فى يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة بعضها آت من فرنسا وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع بول فيما سمع من الأسماء اسم مدام دى لاتور « هيلين » فاختطف الرسالة من يد الرجل اختطافاً ، وقرأ عنوانها فإذا هو بخط فرجينى ، فطار بها فرحاً وسروراً ، وأخذ يعدو إلى

المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها فى الجو كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة إلى هيلين ففضت غلافها وأمرت عليها نظرها فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب فى عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيرا أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها فى حياتها مذهباً غير مذهبها الأول فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر إليها بالعين التى تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طردا ، فلم تجد بدا من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها : إنى أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة « سان جيران » وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا فى الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفى الغد نلتقى إن شاء الله تعالى .

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً وسرورا وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ويهتفان بصوت عال « قد عادت فرجينى ! لقد عادت فرجينى » وكان أول مامر بخاطر بول فى هذه الساعة أن يذهب إلى كوخى ، ويبشرنى برجوع فرجينى ، ويشكر لى نبوءتى التى تنبأت له بها فى أمرها ، وكانت قدمضت هدأة من الليل ، فاستأذن أمه فى ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلا كبيرا حتى وصل إلى بعد ساعتين ، وكنت قد أويت إلى مضجعى فأيقظنى من نومى وألقى إلى ببشراه ، فلم يكن سرورى بها بأقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب إلى الشاطىء لننتظر فرجينى فإن السفينة تصل فى الصباح .

فقمت إلى ثيابي فأسبلتها علي وذهبت معه ، كانت الليلة حالكة مدلهمة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة في الصحراء ؛ فمشينا لانهتدي بشيء سوى غريزتنا التي تقود خطواتنا دائماً في مفاوز الأرض ومجاهلها وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً .

فإنا لسائرون إذ لمحنا زنجياً ضخم الجثة يمر بجانبنا ، فاستوقفته وسألته من أين أقبل ؟ فقال : إني مرسل من شاطئ جزيرة الذهب إلى الحاكم لأبلغه أن سفينة قد ألقى بها التيار إلى ماوراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أي أنها في خطر ، وأنها في حاجة إلى المعونة، فسألته : هل يعرف اسمها؟ فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله ، فلتفت إلى بول وقلت له : أخاف أن تكون سفينة « سان جيران » وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطئ ، وكانت الطلقات قد انقطعت على الحقيقة ، فمشى معاً صامتاً لايقول شيئاً حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطئ ، وكانت الطلقات قد انقطعت فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطاً بثلاث دوائر سوداء كأنه متمنطق بنطاق الحداد فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج تموج ظلماته بعضها في بعض، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ أو هضابه فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذي يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مكبين على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها فقصدنا إليهم ، وجلسنا على مقربة منهم وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد حاد بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطئ جزيرة

العنبر حيث الخطر عظيم لاحيلة فيه ، وأنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذى بين جزيرة العنبر وجزيرة « سان لوى » فمصيرها الهلاك مامن ذلك بد ، وكان بول يسمع هذا كله ، وهو صامت مطرق الرأس كأنه لايفهم منه شيئاً

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطحلب[1] ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ، لأن الضباب كان كثيفاً جدا ، وكأنما قد بنى دون السماء سماء أخرى لايرى الرائى من خلالها غير بعض القمم العالية تطفو وترسب كما يطفو الغريق ويرسب فى عباب الماء ، ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئا أشبه بغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فإذا هو جزيرة العنبر التى زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا أننا لم نر السفينة بحال من الأحوال .

وهنا حضر المسيو لابوردنيه حاكم الجزيرة راكباً جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفاً واحدا ، ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نورا لمع على سطح البحر وأعقبه دوى مدفع ، فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطىء لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأى أن نرى شبحها الغارق فى عباب الضباب وأن نرى سواريها الذاهبة فى كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذى[2] وزمجرته صوت ربانها وهو يصرخ صرخاته العظمى التى يستنهض بها همم رجاله فأمر الحاكم بإعداد زورق لنجدتها ، وإشعال النار على طول الشاطىء لترى على ضوئها الزورق المعد لإنقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعا ، واستمر التخاطب بهذه اللغة الناريه بينها وبين الشاطىء ساعة طويلة .

---

(١) الطحلب : خضرة تعلو الماء المزمن .

(٢) الجرجرة (فى الأصل) ترديد البعير صوته فى حنجرته ، والآذى : الموج .

وإنا لكذلك إذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجى هرم يدب على عصاه ، وقال له : إننا نسمع ياسيدى منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر إلينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب دون أن تهب علينا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسرابا دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهى العاصفة مافى ذلك ريب ولاشك ، أنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فإن لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد .

فاصفر وجه الحاكم ، وشعر برعدة شديدة فى جسمه . إلا أنه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ، ولوكان فى ذلك حياتى .

ولقد صدق الزنجى فيما قال ، فقد لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعث فى جميع أوصاله رعشة شديدة كتلك الرعشة التى تنبعث فى جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأن مطارد يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع السحاب سوداء قاتمة تلمع فى خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الأفاعى ، وطنين البعوض ، وزمجرة الوحوش .

(٢٤)

العاصفة

فى نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى ، قد انبعثت من جميع جهات البحر فى آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ودارت الأرض الفضاء ، وانقلب عالى كل شىء سافله وصاح الجميع : « العاصفة » .

هنا رأينا منظراً هائلا مخيفا جمدت له دماؤنا فى عروقنا ، ومشت له قلوبنا

فى صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالى ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد أعظمنا فى ثراها .

رأينا الضباب الذى كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة فإذا السفينة ذرة هائمة فى ذلك الفضاء الواسع ، تقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنو من الشاطئ وقفت فى وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب فى طريق أخرى غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة وحبالها متطايرة وسواريها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والإعياء . وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أى أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى .

وكانت العاصفة فى تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصك بمنكبه منكب السماء .

ثم يندفع إلى الشاطئ هوى العقاب إلى وكره فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظاياته فى جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجرا فى تراجعه ، جرجرته فى تدافعه ، كالسهم الأليم فى حالتى وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل كصفحة المرآة فى لمعانها واستوائها ، ورأينا المضيق الواقع بين شاطئ الجزيرتين يرغى ويزبد كأنما يشتعل من أتون[1] متقد ، ويرمى بالزبد من حفافيه[2] كما يتناثر العهن المنفوش عن المندف ، أما السماء فقد أصبحت ميدانا تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح

---

(١) الأتون : موقد نار الحمام .

(٢) تثنية حفاف : وهو الجانب .

البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أنحن وقوف فى أماكننا ، أم طائرون فى جو السماء ؟ وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لايزال الماء ماء واليبس يبساً ؟ .

(٢٥)

الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل مايدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فإذا السفينة قد اصطدمت بإحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير[1] من أجرتها قد انقطع ، فانبعث فى تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ؛ وإذا بول يهجم على البحر ليلقى بنفسه فيه فاعترضت طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع وظل يصيح : دعونى أنجى فرجينى . فلم يكن لنا بد من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا فى وسطه حبلا طويلا وأبقينا طرفه فى أيدينا خوفاً عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره فى تلك اللحظة منظراً مخيفاً مرعباً كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار لايقوم له شيء إلا أتى عليه ، فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعانى فى سبيل ذلك مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو ، فلطمه تيار قوى لطمة شديدة أعادته إلى الشاطىء كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الأعضاء ، فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق إلا بمقدار ماتنفس نفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول .

---

(١) الجرير : الحبل

وكان الموج يهدأ حيناً عن السفينة ، فيخيل إلينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المتهافتين على سطحها من الإعياء والتعب ، وربانها الواقف فى مقدمتها وقفة الليث المصور يصرخ صرخاته العظمى التى تدوى بها أجواز الفضاء ؛ ثم يطغى عليها حيناً فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها كما يغمر القبر دفينه .

وما هى إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب إلى أحشائها ؛ وعلم ركابها أنهم هالكون إن بقوا فيها فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها .

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشئون من آماقها لهفة وجزعاً .

ظهر فى مؤخر السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها العاريتين ؛ وقد ضمت بإحدى يديها قميصها إلى صدرها ؛ ومدت يدها الأخرى إلى ذلك البائس المسكين الذى يخاطر بحياته ويكابد أعظم الشدائد والأهوال فى سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أهى تستغيث به لينقذها ، أم تشير إليه أن يعود إلى مكانه رحمة به وإشفاقاً عليه ؟ فكان منظرها فى تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة فى صفحة السماء .

من هى هذه الفتاة ؟ إنها فرجينى ! إنها الفتاة الطاهرة الشريفة التى تجثو الفضيلة خاشعة بين يديها ، إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التى نبتت من كل قلب ، فهى حبيبة إلى كل قلب ، إنها الرحمة الإلهية ، التى طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ، إنها النور السماوى الذى طالما أشرق فى القلوب اليائسة الحزينة فأنار حلكتها وبدد ظلمتها وملأها رجاء وأملا ، لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الأيادى إلا ارتفعت إلى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن ينقذها من بلائها .

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوى إلى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم إلى الماء لايعلمون أذاهبون إلى الحياة أم إلى الموت ؟ وسفينة النجاة واقفة فى مكانها من الشاطىء لاتستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفاً على نفسها من الهلاك .

وأخذت همة بول تضعف وتفتر ، لأنه كان قد استنفد جميع قواه فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه .

وما هى إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شىء إلا من فرجينى واقفة فى مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحار واقفاً فى مقدمتها قد خلع ملابسه ثم لمح فرجينى واقفة موقفها هذا فأبى له كرمه ووفاؤه إلا أن يمد لها يد المعونة لينقذها ، فمشى إليها وجثا بين يديها وطلب منها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره ويسبح بها .

أتدرى ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلا عاريا بين يديها يريد أن يضمها عارية إلى جسمه فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب : أنقذها ! أنقذها ! فوثب الرجل قائماً على قدميه ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه .

وهنا واأسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر فى اندفاعها زمجرة الليث المحصور ، فذعر البحار إذ رآها وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه وألقى بنفسه فى الماء .

أما فرجينى فلم تخف ولم تطش بل لبثت فى مكانها كما هى وقد علمت أن الساعة آتية لاريب فيها ، فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، ووضعت يدها الأخرى

على قلبها ، وسبحت بنظرها فى الفضاء فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه فى جو السماء .

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزءاً من هذا المنظر الهائل المخيف ثم فتحوها فإذا البحر قد ابتلع كل شيء وإذا كل شيء قد انقضى .

* * *

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه إلى ركبته وأخذ يضطرب اضطرابا شديداً كأنما يعالج غصة تعتلج فى صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكياً ينشج نشيج الأطفال فهاجنى بكاؤه فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع إلى نفسى إلا بعد حين ، فرأيته لا يزال فى ذهوله واستغراقه ، فنبهته فانتبه ، وعاد إلى حديثه يقول :

يالـه من يوم عظيم هائل ! يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة ، يا لها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاما ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامى كأننى لا أزال أراها ، إن فرجينى كانت عزيزة على جداً بل كانت أعز مخلوق عندى ، ولو كان لى ابنة لما نزلت من نفسى تلك المنزلة التى نزلتها ، وكان كل أملى فى حياتى أن أعيش فى ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عينى بيدها فى ساعتى الأخيرة فلم يقدر لى ما أريد ، لقد هجرت العالم كله ولجأت إلى هذا المعتزل البعيد النائى هرباً من الشقاء فتبعنى الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركى بعد ذلك حتى ينزل معى إلى قبرى .

ثم تنفس الصعداء وقال : ولكن الذى يهون وجدى عليها أنها الآن سعيدة فى سمائها مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التى ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد .

نعم إن يومها كان يوماً هائلا جداً ، فلقد بكاها كل من رآها حتى

الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق في عيونهم موضع للبكاء وكان أكثرهم بكاء عليها ذلك البحار المسكين الذى حاول إنقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل إليه أنه أجرم إجراماً عظيما بالفرار منها وتركها وشأنها ؛ فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : اللهم اغفر لي ، فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ولكن الله أراد شقائي .

أما بول المسكين ، فقد جذبناه قبل ذلك إلى الشاطىء فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يرتعد ويضطرب اضطراب الغصن فى مهاب الرياح حتى انقضى ، فسقط مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فطللنا نعالجه ساعة طويلة حتى استفاق بعد لأى ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ثم انتفض انتفاضة شديدة وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن ينقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به وظل هو ملازما له لا يفارقه .

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا ودومينج إلى الساحل لنفتش عن جثة فرجيني ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلا فقضينا فى البحث عنها زمناً طويلا فلم نعثر بها ؛ فاشتد حزننا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الرعب يدب فى قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون :

ألا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه ؟ ألا يوجد بين هؤلاء الناس من يستحق هذه الميتة التى ماتتها هذه الفتاة سواها ؟

والنفس الضعيفة تعجز دائماً عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد بداً حين تصدمها من أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج فى سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فإنها ما أتيت إلا من ناحية الإيمان بالله والثقة بعدله ورحمته .

وهنا مر بعض الناس وأخبرنا أن التيار قد ألقى ببقايا السفينة على شاطىء

الخليج المسمى خليج «وعبو» أى خليج القبر فذهبنا إليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة فى الرمل إلا جزأها الأعلى فنبشنا عنها فإذا هى على الصورة التى رأيناها عليها فى ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لايزال يجول فى وجهها ، لولا اصفرار قليل فى خديها ؛ وإذا هى لاتزال ضامة ثوبها إلى جسمها وواضعة يدها الأخرى على قلبها ، وكأن أناملها تقبض على شىء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول بول التى كان بول قد أهداها إليها قبل سفرها فوعدته أن تحتفظ بها إلى آخر رمق من حياتها ؛ فكأنها تودع صديقها الجميم الوادع الأخير فى صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرت هذا الإخلاص العظيم كل الإكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لايغيرها شأن من شئون الحياة أو الموت .

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدت إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود ، وصعدت إلى الوادى لأبلغ تلك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبنى وقفت فى حياتى موقفاً أشد من هذا الموقف ، فدخلت عليهما فى الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان الله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله على الكائنات ويضرب عليها سرادقا من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرها على حتى ذعرتا وارتاعتا وصاحتا : أين فرجينى ؟

فلم أستطع أن أنطق بشىء سوى أنى أطرقت برأسى ، فدنت منى هيلين وقد استحالت إلى شبح من أشباح الموتى وقالت لى بصوت خافت متهافت : هل ماتت ؟ فاستمررت فى إطراقى ، ففهمت كل شىء وما هى إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت فى مكانها لايختلج فى جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتنى وأين بول ؟ فتلطفت فى قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنى أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعبأ بما أقول ،

ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها .

ولا أستطيع ان أصف لك يا بنى هول تلك الليلة فى ذلك الكوخ فلم تكن ليلة بكاء وعويل وولولة وصياح ، كما تكون ليالى الشكل فى بيوت الثاكلين ، بل ليلة حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد ، وما أنس لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة ، وهى ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تئن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ، وتقلب وجهها فى السماء تسألها دمعة واحدة تروح بها عن نفسها فلا تعطاها ، وقد تغمغم أحياناً بكلمات مبهمة لا يستمع منها السامع غير قولها : ابنتى ! حبيبتى ! مسكينة أنت ! الرحمة يا رب ! المغفرة يا إلهى ! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكى ولدها ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها فى تلك الساعة أعجب منظر رأيته فى حياتى ، أما دومينج ومارى فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ ، يلطمان خدودهما ويخمشان وجوههما وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة فى جو السماء حتى تلفا أو كادا .

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت فى صمت وسكون من حيث لا يشعر بى أحد ، وانحدرت إلى الشاطىء فرأيت الحاكم قد أعد كل شىء لتشييع جنازة فرجينى ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر ، وأنواع الريحان وحمله ثمان من عذارى « سان لوى » لابسات حللا بيضاء مشرقة وتبعه نحو مائتى طفل من أطفال الدير يمشين صفوفا متتالية ، ويحملن فى أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة ، ومشى فى المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده منكسى أسلحتهم ، مطرقى رءوسهم ، والناس فيما وراء ذلك بحر زاخر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ؛ وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطىء .

ولم نزل سائرين فى طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة « بامبلموس » وهناك حى الزنوج المساكين الذى كانت تزوره فرجينى فى أيام الآحاد بعد أداء الصلاة فى الكنيسة ، فتعين فقراءه وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه ، وفتيانه ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكائهم ، وكانت مناحة عامة جاد فيها من لم يجد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء ، ولقد رأيت بعينى أولئك الأبطال الأنجاد الذين يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب يتهافتون على الجذوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزمبيق آتيات يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقاً بيضاء ناصعة ، كعادتهن التى اعتدنها فى موتاهن الأعزاء ، ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجل الفضيلة ، وما أعظم شأنها ، إنها الشريعة العامة التى يدين بها الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذى يقف فيه الجميع صفاً واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة بنغمة واحدة . .

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة فى الجانب الغربى من كنيسة « بامبلموس » كانت تجلس تحتها دائماً هى وبول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب وهرعت الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههم تبركا كما يفعلن أمام تمثال العذراء ، وجأرت الأمهات بالدعاء إلى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التى

منحها هذه القديسة المباركة ليحيين حياتها ، ويمتن موتتها ، وما هى إلا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الضخم الذى خفق فى سماء العالم لحظة ، ثم اختفى .

(٢٦)

أحزان بول

نقلنا بول فى محفة إلى كوخه بعد ما أبل قليلا ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التى يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا إليه وضمتاه إلى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفس الدمع عن تلك الحرقة الكامنة التى ظلت تعتلج فى صدورهما يومين كاملين ، وكأن شعاعاً لامعاً قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبيهما فأضاءهما بنور العزاء والسلوى ، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التى كانت تعصف بقلوبهم ليلها ونهارها إلى سكون يشبه سكون الموت ، فلا نواح ، ولا عويل ، ولا تذمر ، ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التى تنحدر من آماقهم فى صمت وسكون .

وبعد هنيهة حضر الحاكم ليعزى هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلا عن عمتها ، وعن ذلك المسلك الوحشى الذى سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له : يجب أن تسافر يا بنى إلى فرنسا وسأعطيك كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما فى غيبتك ، فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا يريد منها ،

ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتأب الرجل قليلا ، ثم نهض وقال له : سأعود مرة أخرى يا بنى ، وانصرف .

ولم يكن لى بد من فى هذه الأيام من أن ألزمهم لأقوم بخدمتهم وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسى تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلى ونهارى ما أكاد أفارقه ؛ حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ فى قلبه ذلك المصباح المنير الذى كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والإشراق فأصبح ذاهلا مذهوباً به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ، وكانت تدنو منه هيلين أحياناً فتقول له : إننى كما رأيتك يا ولدى يخيل إلى أن ابنتى لا تزال حية باقية أراها وأحادثها ، تريد بذلك تسرية همه وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم فرجينى حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ويخرج من الكوخ هائما على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيرا ما كان يذهب وحده إلى « مخدع فرجينى » فيجلس هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه وباسمها شاخصا ببصره إلى البركة التى كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به الكوخ .

وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائما حيثما سار ، فصعد جبل « المورن » ، ثم انحدر إلى سفحه الآخر ومشى فى الطريق الموصل إلى كنيسة بامبلموس ، فاستطير قلبى خوفا وهلعا وخفت أن ينتهى به المسير إلى قبر فرجينى ؛ وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف فى وجهه ، لأن الطبيب أمرنى ألا أحاوله فى أمر يريده ، وأن أترك له الحرية فى جميع ما يأخذ ، وما يدع ، وقال لى : إن هذا هو علاجه الوحيد الذى لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها فظل سائرا لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلى ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب لأننى كنت

على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة فرجيني من البحر أم ذهبت طعاما للسمك ؟ فلم أجد بدا أنا ودومينج من أن نجثو جثيه وندعو دعاءه فالتفت فرآنا . فسألته لم يصل فى هذا المكان ؟ فقال إنه المكان الذى كنا نجلس فيه معاً حينما نأتى إلى هنا أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لى أن هذه البقعة أحب بقعة إلى على وجه الأرض وأدناها إلى نفسى ، فعلمت أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دل على القبر .

ثم نهض قائماً على قدميه وذهب ببصره فى السماء وظل على ذلك ساعة فخيل إلى أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة إليه التى فارقته فراق الأبد ؛ فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم ما لبث أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر إلى شاطىء البحر ، فذعرت وارتعت ، ولم أجد بدا من أن أقف فى وجهه ، وقالت له : عد بنا إلى الكوخ يا بول وكن عند ظنى بك ، فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائرا فى طريقه حتى أشرف على البحر وشخص ببصره إلى النقطة التى غرقت فيها السفينة ، فخفت أن يكون قد حدث نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت منه وقلت له : إن المنتحر يا بول لا يصعد إلى ملكوت السماء ، فلم يزد على أن صاح : آه يا فرجيني ! آه يا فرجيني ، وسقط مغشيا عليه فحملناه إلى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطىء مرة أخرى ، فضرعت إليه ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأى ما استطعنا أن نعود به الكوخ .

وأصبح بعد ذلك لا شأن له إلا طروق الأماكن التى عاش فيها مع فرجيني أو اتفق لهما فيها شأن من الشئون ، فزار الملعب الذى كانا يلعبان فيه معا وهما طفلان صغيران ويحفران فى رمله الحفر العميقة الواسعة ويملآنها بالماء وصغار السمك ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التى مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تتق منه نفسها ، فكان

منظرهما منظر الدمية فى المحراب ، ومشى فى الطرق التى مشيا فيها يوم ذهبا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذى قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها الأبيض حين أزمت بها أزمة الجوع ، ودخل الغابة التى أضلا فيها الطريق حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التى جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التى كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعبا مكدودا فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التى تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطىء الرملى الذى كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلا على الصخرة التى جلسا عليها ليلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان ، وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها .

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظلة ولا كرمة كانا يجلسان إليها ، أو يفيئان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلا . كأنما كان يشعر فى نفسه أنه مفارقها ، ولا بد له من وداعها فهو يودعها وداع الآسف الحزين .

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيدا شريدا هائما مستوحشا ، يأكل حيث يجد طعاما ، ويشرب حيث يجد شرابا ، ويأوى إلى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخونه السقم ، وأضواه الهم ، فغارت عيناه ؛ وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولا ، فأزعجنى أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ، ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة فى شأن نكبته التى نكب بها رحمة به وإبقاء على حشاشته القريحة أن يؤلمها المس ويهيجها البعث ، فلما استحالت حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب فى معالجته مذهبا غير المذهب

الأول فجلست إليه ذات يوم وقلت له : أتعلم يابول أن فرجيني قد أخلصت إليك إلى آخر رمق فى حياتها إخلاصاً لم ير مثله راء ، ولايتحدث بمثله متحدث ؟ فانتفض قليلا ورفع رأسه إلى ورنق ينتظر ما أقول .

فأخرجت له صورة الرسول بول وأريته إياها فاختطفها من يدى بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال : وأين وجدتها؟ قلت : على صدر فرجيني حينماوجدنا جثتها على شاطىء البحر ،وقد وضعت يدها عليها كأنما تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير . قال : وهل وجدتم جثتها ؟ قلت : نعم وجدناها على ضفة الخليج عشية اليوم الذى غرقت فيه تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذى تحب أن تستره من جسمها ، قال : وأين دفنتموها ؟ قلت : فى الجانب الغربى من كنيسة « بامبلوس » تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث ذهبت وجثوت وصليت من حيث لاتدرى ، فتنفس تنفسه طويلة كادت تتقطع لها حيازيمه وأكب على الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له :

(٢٧)

الموت

ماهذه الدموع التى تذرفها يابنى ليلك ونهارك ما تهدأ ولاتفتر ، وماهذا الحزن الذى تحمله بين أحناء ضلوعك لاينفرج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل ؟ ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التى يهلك المرء فى سبيلها جزعا ، وتتساقط نفسه من دونها حسرات ؟ وهل هو إلاالانتقال من منزل إلى منزل ؟ والتحول من موطن إلى موطن ؟ وربما كان الذى تنتقل إليه خيراً من الذى تنتقل منه ، ومن أين لك أن الله تعالى لم يرد بصاحبتك خيرا حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه مانقلها من هذه الدار إلى تلك

الدار إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها وستلاقى منه آلاماً جساماً ؟ وهل يمكن أن يكون لها مصير إن قدر لها البقاء فى هذه الحياة غير هذا المصير بعد ماتجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى إليه من سوء الحال وخيبة الأمل ؟ وبعد ماقضى عليها أن تقضى بقية أيام حياتها فى هذه القفرة المجدبة المحرقة التى لا ماء فيها ولا ثمر ؟ وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين أطفالها المستقبلين على العيش بعد ما ألفت النعمة والرغد والعيش الهنىء فى قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً ولا حجراً ؟ ولا رملا ولا مدراً ، ولم لا يهنؤك ويفرحك ويملأ قلبك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة فى عيشها هانئة بمصيرها مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة نقية لم تلوث صحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذى تلوث به صحائف الفتيات ؟ مجزية أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم ، موقف العزة والأنفة ، والصبر والاحتمال الذى وقفته فى ساعتها الأخيرة ؟ ومن هو أولى منك وأنت صديقها وحبيبها وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذى صارت إليه ؟ وأنا أجلك كل الإجلال عن أن يكون حبك إياها حبا ماديا يزعجه افتراق الأجسام ويكدر صفوه اختلاف الوطن والمقام ؟ ولو أنك عدت إلى نفسك قليلا لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأعنك ، وأنها جالسة إليك تحدثك وتسمع حديثك ؟ ولا شك عندى فى أنها عاتبة عليك أشد العتب فى هذه العجاجة السوداء من الحزن التى تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة إلى الجحيم تستقبل أنواع العذاب وألوان الآلام ، أو كأن كل الذى كان يعنيك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يبكى الطفل لعبته النافقة ، وكأنى أسمعها تهتف بك قائلة « لا تبك على يابول فإنى سعيدة ناعمة

متمتعة برحمة ربى ورضوانه ، متقلبة فى أعطاف نعمته التى أسبغها على مكافأة لى على صبرى واحتمالى ، وما استقبلت به هموم حياتى وآلامها من سكينة وجلد ، فاصبر كما صبرت واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ويرفعك إلى المنزلة التى رفعنى إليها ، فنعيش معا فى سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالإضافة إليها إلا وهما من الأوهام ، أو حلما من الأحلام » .

فلم يزد أن رفع رأسه إلى وقال : مادامت الحياة شقاء وعذابا وما دام الموت سعادة وهناءة ، وما دامت فرجينى تنتظرنى فى علياء سمائها لأعيش بجانبها العيش الذى أرجوه وآمله ، ولا أوثر عليه عيشا سواه ، فلا خير فى الحياة من بعدها وماأشوقنى إلى الذى يدنينى منها ! .

وهنا علمت ألا حيلة لى فيا قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة إلى الأبد ، وألا يد فى العالم تستطيع أن تديره إلى وجهة غير الوجهة التى يسير فيها غير يد الله فقمت وقام ، ولاأسف فى الدنيا أعظم من أسفى عليه ولا فجيعة أكبر من فجيعتى فيه .

(٣٨)

الإيمان

جزى الله الإيمان عنا خيرا ، فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التى نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذى يعيننا على السير فى صحراء هذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذى يلمع من حين إلى حين فى سماء الليلة المظلمة المدلهمة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفينانة التى يلجأ إليها المسافر

من حرور الصحراء وسمومها فيجد فى ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التى يظفر بها الظامئ الهيمان فينقع بها غلته ، ويفثأ لوعته ، وهو المطرة الشاملة التى تنزل بالأرض القاحلة فتهتز تربتها وتحيي مواتها وتبعث فى صميمها القوة والحياة ، وهل كنا نستطيع أن نبقى لحظة واحدة فى هذه الدار التى لا نفلت فيها من هم إلا إلى هم ، ولانفزع من رزء إلا رزء ، لولا يقيننا أن هذه الطريق الشائكة التى نسير فيها إنما هى سبيلنا الوحيد الذى يفضى بنا إلى النعيم المقيم الذى أعده الله فى جواره للصابرين من عباده ؟ وهل كان فى استطاعة مريضنا الذى يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذى عجز عن القوت ، وثاكلتنا التى فقدت واحدها من حيث لاترجو سواه ، أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لاتنقضى بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى فى عالم غير هذا العالم ، لا سقم فيها ولا مرض ، ولابؤس ولا شقاء ؟ .

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت فى أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أما هذه الحوادث المؤلمة التى تقض أصلاد الصفا وتذيب لفائف القلوب ، فكنت إذا دخلت عليهما رأيتهما فى فراش مرضهما صابرتين محتملتين كأنهما لاتعالجان فى أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية وأهولها ، فإذا نظرتا نظرتا إلى السماء ، وإذا نطقتا نطقتا باسم الله وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لا تلبث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع فى نفسهما أن الله استجاب دعاءها وتقبل قربانهما ، ووعدها المثوبة العظمى فى دار نعمته وجزائه .

ولقد دخلت صباح يوم على مرغريت فى اللحظة التى استيقظت فيها من نومها فقصت على أنها رأت فرجينى فى منامها تسبح فى غمرة من النور وقد

لبست قميصاً أبيض فضفاضا كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رويدا رويدا حتى أصبحت فى حرم الأرض ، فمدت يدها إلى بول فأخذت به من ضبعيه وطارت فى جو السماء فتشبثت بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف طرت ، ثم نظرت تحتى فإذا هيلين طائرة ورائى ، وإذا مارى ودومنيج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين فى كوخها فى الساعة نفسها فقصت على هذه الرؤيا بعينها ، فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لايزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين الملائكة المقربين .

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هى ، أما بول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان خرج فى بعض خرجاته التى اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده فانحدرت إلى حى پامبلموس فوجدته جاثيا على قبر فرجينى وقد ضم إلى صدره صورة بول الرسول التى خلفتها له ، فحركته فإذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها فى قبرها ، وأما مرغريت ، فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجلدة لاتذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعا هادئا ساكنا لم تزد فيه على أن قالت لها « سنلتقى هناك » كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير فى ذلك الكوخ البسيط ، لايحيط بها غيرى وغير مارى ودومنيج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير والنعمة السابغة ، والمتعة الواسعة ، أما أنا . . . وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعادا شديدا ، ثم قال بصوت خافت متهدج « فقد بقيت وحدى » وانفجر باكيا بكاء ثاكل فجعها الدهر فى أفلاذ كبدها جميعا فى ساعة واحدة ؛ فلا صبر لها ولا عزاء ، وبعد لأى ما استطاع أن يعود إلى حديثه فقال :

وهنا لم أجد بدا من أن أنقل مارى ودومينيج إلى كوخى ، فلم يعيشا بعد موالبهم بضعة شهور ثم لحقا بهم فخلت الأرض منهم جميعهم ، حتى من كلبهم ، وماشيتهم ، وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجسادا هامدة وعظاما نخرة ، تسفى عليهم السوافى ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والأمم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التى تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكرهم فى كثير من الأماكن التى عاشوا فيها . فسموا الرأس الذى عجزت السفينة عن اجتيازه فكان فى ذلك هلاكها « الرأس البائس » والخليج الذى وجدت جثة فرجينى على شاطئه دفينة فى الرمل « خليج القبر » والمضيق الذى غرقت فيه السفينة « مضيق سان جيران » وسموا مخدع فرجينى التى كانت تخلو فيه بنفسها « كهف الفتاة » وشجرة الخيزران التى ظللت قبرهم جميعا « الشجرة المقدسة » والوادى الذى عاشوا فيه « الوادى السعيد » ، ثم لم تلبث الأيام أن تذهب بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ، ولا يفهمون معناها ، فوارحمتاه لهم ، لقد ضن الدهر عليهم بكل شىء حتى بالذكرى !.

وقد علمت بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التى ضنت بمالها على ابنة أخيها وتركتها تموت بؤسا وجوعا فى هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمت منه حفيدتها وتركتها تهلك يأسا وهما فى أعماق المحيط ، لقيت جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجينى وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون وملأت رأسها الوساوس والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكى مصيرهما حتى تشرف على التلف ، وتهون على نفسها أمرهما تارة أخرى قائلة إنها لم تفعل شيئا سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها ، فكان ماقدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما

رأتهم فى طريقها فتصيح : أما كان خيراً لهؤلاء الأشقياء أن يذهبوا إلى المستعمرات الإفريقية فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ؟ ثم لاتلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم فتذهب إلى الكنيسة بمال كثير تضعه فى صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التى تقدمها إليه ، وكانت لاتزال ترى فى يقظتها ومنامها وقومتها وقعدتها وذهوبها وجيئتها ، أشباحاً مخيفة تلوح لها فى وجهها ، وتهددها أفظع تهديد وأهوله فترفض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها من دائها ، وما داؤها إلا ذنوبها وآثامها التى أسلفتها ! فما حيلة الكاهن فيها ؟ وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين الذين لاتحبهم ولايحبونها سيرثونها من بعدها ، اشتد ذلك عليها كثيراً فتخرج إلى الطريق حاملة بدرة من الذهب فى يدها فتنثرها نثرا فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان وسكنوا قصرها من بعدها ووضعوا أيديهم على مالها وكأن الله قد أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والإدراك ماتستطيع به أن تعلم أن مالها الذى تعبت كثيرا فى جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيرا من الذنوب الآثام فى سبيل الاحتفاظ به والحرص عليه يتمتع به فى حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالا عظيما ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها .

وكذلك ينتقم الله من الأشحاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله إلى الأيدى التى لاتستحقه : سنة الله التى لاتتبدل ولا تتغير ، وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على مايدور حوله وأنشأ يقول :

سلام عليكم أيها القوام الأبرار ، والملائكة الأطهار ، لقد عشتم فى هذه الدار وأنتم غرباء عنها ، لا تعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا

تأنسون بها ، لأنكم من عنصر غير عنصرها وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ألم بالعيون الهاجعة ، ثم مضى لسبيله .

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ومساكنكم لايأوى إليها غير الضب واليربوع ، ولا يسمع فيها غير الزئير والعواء فلا نور ، ولا نار ، ولا روض ولاماء ، ولامرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولاأثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامة التى تزلزل كل شىء وتأتى على كل شىء .

سلام عليكم يابنى ؛ لقد كنتم أنسى وحياتى وسلوتى وعزائى ومتعة نفسى وراحة ضميرى ، والروضة الأنف التى أقطف ماأشاء من أزهارها ورياحينها وألجأ إلى ماأحب من ظلالها وأفيائها ، أما اليوم فقد سمج وجه الدنيا فى نظرى وأصبح عبء الحياة ثقيلا عن عاتقى ، لاأستطيع احتماله ، ولاالاستقلال به .

سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم الذى نشأ فى تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجا بسيطاً ، لاينال الناس بشر ولا يعتقد فى الناس شرا ، ولا يضمر فى نفسه إلا الوفاء والإخلاص حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذى يؤويه ، والظل الذى يفىء عليه .

سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة التى صيغ قلبها من الرحمة والشفقة فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذى لا عائل له ، والأرملة التى لامعين لها ، بكاء صادقا لاتسمعه إلا أذن الليل ، ولاترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها فى أدبها وحيائها بأقل من صدقها فى رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضنا بجسمها أن تلمسه يد منقذها .

سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان اللتان علمتا ولديهما الفضيلة وغذتاها

بلبانها ، فكانتا خير الأمهات لخير الأبناء ، واللتان لم تسخطا فى حياتهما يوماً واحداً ، ولم تنقما ، ولم تشكوا لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ونالهما من الأرزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكوناً لقضائه وقدره حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء .

سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان اللذان حفظا الصنيعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما وخشونة منبتهما ووحشة نفسهما ، من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والإخاء التى لا يزال البيض فى أوروبا ينشدونها فى كل مكان على ألسنة كتابهم وشعرائهم وخطبائهم ووعاظهم رجاء الوصول إليها ، فلا يجدون إليها سبيلا .

سلام عليكم يا بنى من والدكم الحزين الباكى الذى بليت عظامكم فى قبرها ، ولم يبل ذكركم فى قلبه ، والذى ظل يختلف إلى واديكم عشرين عاماً يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتب له مايريد .

* * *

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً كأنه يقتلع نفسه من الأرض اقتلاعاً وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة فى تلك الساعات القليلة التى قضاها معى ، فأصبح حمامه اليوم أو غد ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، ولم يبق منها فى دائرة الأفق إلا كما يبقى فى جنبات الكأس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى فى طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت فى مكانى أنظر إليه وقلبى يذوب رحمة به وإشفاقاً عليه ، حتى انحدر فى بعض البطون وغاب عن نظرى .

(٢٩)
النهاية

عدت إلى منزلى الذى أنزله وحاولت أن آوى إلى مضجعى فنبا بى ، وأن أستزير الغمض فامتنع على ، وأن أهدأ فى مكانى ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر ما يشغلنى وينفر النوم عن عينى حالة ذلك المسكين فقد هاجت تلك القصة التى قصها على ألما دفينا فى نفسه وشجنا كامنا ، فاستحال فى بضع ساعات إلى هيكل من العظم تتردد أنفاسه فى صدره تردد الريح فى جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عنى يمشى مشية الطائر المذبوح يجر شلوه جرا ؛ وتمثل لى أنه الآن طريح فراشه ، فى زاوية من زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزع من حيث لايعينه معين ، ولا يرحمه راحم ، فاشتد ذلك على كثيرا وشعرت بشعبة من شعب قلبى قد سقطت .

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته فى واديه على بعد الشقة بينى وبينه لأتفقد شأنه ، وأقضى حق صحبته . فسلكت الطريق التى وصفها لى مراراً فى حديثه ، ولم أزل أصعد النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة وأهتدى أخرى ، حتى أشرفت منزلق الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد فى ذلك الوادى الموحش ، فانحدرت إليه وكنت أرجو أن أراه واقفا على بابه ، أو جالسا على مقربة منه ، فلم يقع نظرى على شىء ، وكان السكون سائداً عميقا لايسمع فيه السامع نأمة ولا حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفوراً صغيراً يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ، كأنما هو يوقع لحنا من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد ، فرفعت نظرى إليه

فإذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرت عند رؤيتها أنها الشجرة الوحيدة التى حدثنى عنها أن فرجينى غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها من أجلها ، فدنوت منها فراعنى أن رأيت تحتها شبحاً معفراً بالتراب ، فتبينته فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ، فهالنى الأمر وتعاظمنى ، وشعرت بقلبى يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسى تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت : يا له من رجل مسكين ! لقد مات ، ولا صديق يوسد رأسه أو يسبل أجفانه ، ولا عين تبكى عليه غير ذلك العصفور الصغير الذى ينوح فوق رأسه .

* * *

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التى مات تحتها . والتى كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا .

ولا عين إلا وهى عين من البكا   ولا خد إلا للدموع به خد

انتهت

پول وفرجيني

يا بنى القفر ســـلامٌ عاطر   من بنى الدنيا عليــكم وثناء
وسقى العارض من أكواخكم   معهد الصــدق ومهد الأتقياء
كنتم خير بنى الدنيا ومن   سعــدوا فيها وماتوا سعداء
عشتم من فقركم فى غبطة   ومن القــلة فى عيش رخاء
لاخصام ، لا مراء بينكم   لا خــداع ، لا نفاق ، لا رياء
خلق بر وقلب طاهر   مثل كأس الحر معنى وصفاء
ووفاء ثبت الحب به   وثبات الحب فى الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبراً   فى البرايا وعزاء البؤســاء
يجتلى الناظر فيهــا حكمة   لم يسطرها يراع الحــكماء
حكم لم تقرءوا فى كتبهــا   غير أن طالعتم صحف القضاء
وكتاب الــكون فيه صحف   يقرأ الحــكمة فيهــا العقلاء

* * *

إن عيش المرء فى وحــدته   خير عيش كافل خير هناء
فالورى شر وهم دائم   وشقاء ليس يحــكيه شقــاء
وفقــير لغنى حاســد   وغنى يستــذل الفقراء
وقوى لضعيف ظــالم   وضعيف من قوى فى عنــاء
فى فضاء الأرض منأى عنهم   ونجــاء منهم أى نجــاء
إن عيش المرء فيهم ذلة   وحياة الذل والموت سواء

* * *

ليت (فرجينى) أطاعت (بولسا) وأنالته مناه فى البقاء
ورثت للأدمع اللاتى جرت من عيون مادرت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته ساعة لكنه رأى القضاء
فارقته لم تكن عالمة أن يوم الملتقى يوم الفناء

* * *

ما (لفرجينى) و (باريس) أما كان فى القفر عن الدنيا غناء؟
إن هذا المال كأس مزجت قطرة الصهباء فيه بدماء
لاينال المرء منه جرعة لم يكن فى طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرا يدهش الألباب حسنا ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما راق فيها من نعيم وثراء
فأبته وأبى الحب لها نقض ما أبرمه إعهد الإخاء
ودعاها الشوق للقفر وما ضم من خير إليه وهناء
فغدت أهواؤها طائرة بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان ما يأمله وقضاء الله فى الكون وراء

* * *

ما لهذا الجو أمسى قاتما ينذر الناس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجا كبناء شامخ فوق بناء
وكأن الفلك فى أمواجه ريشة تحملها كف الهواء
و (لفرجينى) يد مبسوطة بدعاء حين لايجدى دعاء

* * *

لهفى والماء يطفو فوقه   هيكل الحسن وتمثال الضياء
زهرة فى الروض كانت غضة   تملأ الدنيـا جمالا وبهـاء
من يراها لا يراها خلقت   مثل خلق الناس من طين وماء
ظنت البحر سماء فهوت   لتبارى فيه أمـلاك السماء
هكذا الدنيا وهذا منتهى   كل حى ، ما لحى من بقاء

مصطفى لطفى المنفلوطى

فهرس

مطبعة السعادة
بمصر